الباب الثامن

فيما يكتب واواً أو ياءً ويُتَلَفَّظ به في الوصل همزة، وما يكتب ياء ويُتَلَفَّظ به في الوصل واواً

١ - من المقرَّر كون الكتابة تابعة للابتداء والوقف، فالهمزة الساكنة بعد همزة وصل مضمومة تكتب واواً وبعد المكسورة تكتب ياء، لأنه في الابتداء ينطق بها كذلك، وإن كانت في الوصل ينطق بها همزة، نحو: فليؤدِّ الذي اؤتمن أمانته، ونحو: ائتمن الأمين. هذا ما لم يتقدم الهمزة الأولى واو أو فاءٌ في الماضي والأمر من باب الافتعال المهموز الفاء، أو في الأمر في مثل: «أتى»، وإلا حذفت الهمزة الأولى، ورسمت الثانية ألفاً إذا أمن اللبس، نحو: فأتمن الأمين، فأتوا بكتاب، وأتمنك عليَّ، وأتمر بأمرك، وإذا لم يؤمن اللبس فلا حذف، نحو: ائتم، وائتلف، فإنه عند حذف ألفه يشتبه بأتم، وأتلف، كما إذا تقدم على ما ذكر غير الحرفين المذكورين لأن الفاء والواو كجزء من الكلمة، ولذا لم يصح الوقف عليهما، ووصلت الفاء بما بعدها خطاً، ولولا المانع الطبيعي للواو من وصلها لوصلت، ولذلك استقبح وضعها آخر السطر.

٢ - وكذا أول فعل الأمر من المثال (والمراد به هنا الفعل الذي أوله واو بشرط أن يكون من باب «عَلِمَ يَعْلَمُ») نحو: وَجِل، يوجل. وودَّ، يَوَدّ. يكتب ياءً نظراً للابتداء بهمزة الوصل مكسورة، وينطق به واواً عند ضمّ ما قبله في الوصل، نحو: يا مؤمنُ، اخجلْ من هيبة الله، ويا عليّ، أيِّدْ إخوانك.

* * *

خاتمة

لمّا كان اللفظ يحذف فيه بعض الكلمة، اتكالاً على فهم السامع أو توقيف المعلم، وبنحت الكلمتين كلمة كالحسبلة والبسملة والحمدلة، وكان الخط نائباً عنه، استعمل الكتّاب ما يشبه ذلك في الكتابة، وسمّوه الرمز، كأن يؤخذ من اسم الشهر حرف أو أكثر، نحو: (م) محرم، (ص) صفر، (را) ربيع الأول، (ر) الثاني، (جا) جمادى الأولى، (ج) الثانية، (ب) رجب، (ش) شعبان، (ر) رمضان، (ل) شوال، (ذا) ذو القعدة، (ذو) ذو الحجة، وكأن يؤخذ من الاسم العلم حرف أو حرفان، أو منه أول حرف، ومن لقبه أو بلده حرف آخر، نحو: (س) لسيبويه، و(سم) لابن قاسم العبادي، و(م ر) للإمام الشيخ محمد الرملي، و(ح لي) للحلبي، و(ق ل) للقليوبي، و(خ ش) للشيخ الشبراملسي، و(ض) للحديث الضعيف، و(م) للحديث المعتمد، و(ص) للمصنَّف بفتح النون: أي المتن، و(المص) للمصنِّف بكسر النون، و(الش) للشارح، و(ش) للشرح، و(ثنا وثني، وأنا ونا) في الصحيحين: البخاري ومسلم منقطعة من «حدثنا»، «حدثني»، «أنبأنا»، «أخبرنا»، و(الخ) إلى آخره، و(اهـ) انتهى، و(مم) ممنوع، و(لايخ) لا يخفى، و(ع م) عليه السلام. وكذا (صلعم) أو (ص م) وهذه الأربعة الأخيرة من اصطلاحات العجم.

ولكلّ من علماء المذاهب الأربعة والفنون الأخرى رموز نحو ذلك، ينبِّهون على مدلولاتها في أوائل كتبهم، وفي جميع ذلك ينطق بالأسماء المتعارفة دون أسماء حروف الهجاء.

وقد نهى علماء الدين الأفاضل عن كتابة الرمز بدل الصلاة عليه، صلى الله عليه وسلم، لأن فيه إعراضاً عن اكتساب الثواب العظيم الوارد في حديث: «من صلى علي في كتاب لم تزل الملائكة تستغفر له ما دام اسمي في ذلك الكتاب».

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

يقول مؤلفه السيد أحمد الهاشمي: «قد فرغت من تأليفه في غرّة سنة ألف وثلثمائة وتسع عشرة هجرية»، على صاحبها أفضل الصلاة، وأزكى التحية.

* * *

أمثلة على القواعد السابقة

- ١ -

الصحة تاج على رؤوس الأصحاء، لا يراه إلا المرضى. الحرية أفضل سعادات الدنيا. اليد العليا خير من اليد السفلى. كفى بالقناعة ملكاً، وبحسن الأخلاق نعيماً. إن ما عند الله هو خير لكم. ما كل ما يتمنى المرء يدركه. لن يبلغ المرء حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه: [الكامل]

لِمَنافِعِ يَسْعى اللبيبُ فَلا تَكُنْ لِشَيْءٍ بَعِيدٌ نَفْعُه الدَّهْرَ ساعِيا

[الخفيف]

رُبَّ ما تَكْرَهُ النُّفُوسُ من الأَمْـ ـرِ لَهُ فُرْجَةٌ كَحَلِّ العِقالِ

[الطويل]

فتِلْكَ وُلاةُ السُّوءِ قَدْ طالَ مُكْثُهم فَحَتَّامَ حتّامَ العَناءُ المُطَوَّلُ

[الطويل]

إلامَ تَقُولُ النّاعياتُ إلى مَهْ أَلا فانْدُبا أهلَ النَّدى والكَرَامَهْ

إن تُبدوا الصدقات فنعما هي. لأمر ما جدع قصير أنفه.

﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[1].

[الطويل]

ولكنّ نَفْساً حُرَّةً لا تُقِيم بِي عَلى الضَّيْمِ إلا رَيْثَما أَتَحَوَّلُ

[الخفيف]

قَلَّما يَبْرَحُ اللَّبيبُ إلى ما يُورِثُ المجدَ داعِياً أَوْ مُجيبا

[الطويل]

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٢٣ .

ولكنّما أَسْعى لِمَجْدٍ مُؤَثَّلٍ[١] وقَدْ يُدْرِكُ المَجْدَ المُؤَثَّلَ أَمْثالي

[الطويل]

إذا أنتَ لَمْ تَنْفَعْ فَضُرَّ فإنّما يُرَجّى الفَتى كَيْ ما يَضُرُّ ويَنْفَعُ

[البسيط]

ورُبّما ضَرَّ خِلٌّ نافعٌ أَبَداً كالرّيقِ يَحْدُثُ مِنْه عارِضُ الشَرَقِ

[مجزوء الرمل]

اخْفَظِ الإِخْوانَ كَيْما يَحْفَظوا مِنْكَ المَغِيبا

- ٢ -

قيل لامرأة: ما الجرح الذي لا يندمل؟

قالت: حاجة الكريم إلى اللئيم ثم يرده.

قيل لها: فما الذل؟

قالت: وقوف الشريف بباب الدنيء ثم لا يؤذن له.

قيل لها: فما الشرف؟

قالت: اتخاذ المنن في رقاب الرجال.

[الكامل]

ما ماتَ مِنْ كَرَمِ الزَّمانِ فَإِنَّهُ يَحْيا لَدَى يَحْيى بنِ عبدِ الحميد

الاستشارة يفتقر إليها الرئيس والمرؤوس، فإذا تراءى لك أن تعمل عملاً، فاستشر ذوي الآراء الصائبة قبل أن تبتدئ فيه.

قال عمر بن الخطاب: «الرأي الفرد كالخيط السحيل[٢]، والرأيان كالخيطين، وثلاثة الآراء لا تكاد تنقطع»: [الطويل]

إذا شِئْتَ أَنْ تَحْيا سَليماً مِنَ الأَذَى ودِينُكَ مَوْفُورٌ وعِرْضُكَ صَيِّنُ

فَلا يَنْطَلِقْ مِنْكَ اللِّسانُ بِسَوْءَةٍ فَكُلُّكَ عَوراتٌ ولِلنّاسِ أَلْسُنُ

وعَيْنُكَ إنْ أَبْدَتْ إِلَيْكَ مَعَايِباً لِقَوْمٍ فَقُلْ يا عَيْنُ للنّاسِ أَعْيُنُ

(١) المؤثل: الأصيل، الضارب في القدم، والبيت لامرئ القيس.

(٢) السحيل: المفتول بقوة.

٣ - العلوم عند العرب

١ - في عهد هارون الرشيد اخترعت الساعة الدقاقة والمتحركة بالماء، وقد أهداها الرشيد «لشارلمان» ملك فرنسا، ولما رآها الإفرنج، ذُعروا منها لزعمهم أنها آلة سحرية اختبأت فيها الشياطين، وأرسلت إليهم للإيقاع بهم.

وابن يونس المصري، هو الذي اخترع بندول الساعات، وهم الذين اخترعوا بيت الإبرة، وبوصلة البحرية، وقد أخذ الإفرنج عنهم الأرقام الحسابية، وعلم الجبر والمقابلة، وقواعد ثقل الأجسام وعلم الكيمياء، واستخرجوا المياه والزيوت بواسطة التقطير والتصعيد. وقد برعوا في الجراحة، حتى إن نساءهم كن يعملن العمليّات الجراحيّة لبنات جنسهن، وقد كنَّ يشاركنَ الرجل آونة في عمله، وقد ساحوا في قارة آسيا وأوروبا وإفريقيا.

٢ - وفي مدة المأمون حُسِبَ الخسوف والكسوف، وذوات الأذناب، وقيست الدرجة الأرضية، ورصد الاعتدالان الربيعيّ والخريفيّ، وقدر ميل منطقة فلك البروج، وبرعوا في الرصد حتى فاقوا علماء اليونان، وكان لهم كثير من المراصد الفلكية، منها مرصد إشبيلية، وهو أول مرصد ظهر في أوروبا، ومرصد بغداد، ومرصد سمرقند، ومرصد دمشق، ومرصد جبل المقطم في القاهرة.

٣ - وفي مدنهم انتشرت المدارس، فقد كان في مدينة قرطبة ببلاد الأندلس ثمانون مدرسة في عهد ابن عبد الرحمن الناصر المتوفَّى سنة ثلثمائة وست وستين. وكان في مدينة القاهرة عشرون مدرسة. وكان بها مكتبة فيها نحو مائة ألف مجلد. وكان ببلاد الأندلس نحو سبعين مكتبة عمومية، عدا مكتبة الخلفاء التي بلغ مجموع ما بها من المجلدات نحو ستمائة ألف مجلد. وقد أحرق الإسبانيون بعد فتح الأندلس نحو مليون وخمسة آلاف مجلد، كلها من وضع العرب.

٤ - وقد أنفق الوزير نظام الملك مائتي ألف دينار على مدرسة في بغداد. ورتب لها نحو خمسة عشر ألف دينار تنفق في شؤونها سنوياً، وكان

بها نحو ستة آلاف تلميذ. وكان الفقراء يتعلّمون فيها مجاناً. وقد أنشأ العرب مدرسة في إيطاليا، وهي المسماة مدرسة سالبرن.

٤ - لقمان

١ - عاش ألف سنة، وأدرك داود عليه السلام، وأخذ عنه العلم. وكان يُفتي قبل مبعث داود. فلما بعث، قَطَع الفتيا. وكان حكيماً لا نبيًّا، وكان عبداً أسود، فرزقه الله العتق، ورضي قوله.

وقد دخل على داود يوماً، وهو يسرد الدروع. وقد ألان الله له الحديد. فأراد أن يسأله، فأدركته الحكمة، فسكت. فلما أتمها لبسها، وقال: نِعْم لبوس الحرب أنت. فقال لقمان: الصمت حكمة، وقليل فاعله. فقال له داود: بحق ما قد سُمِّيت حكيماً.

٢ - وقد أوصى ابنه، فقال: «يا بنيّ، لا تُشْرك بالله، إن الشرك لظلم عظيم. يا بُنيّ، أقم الصلاة، وأْمر بالمعروف، وانْهَ عن المنكر، واصْبر على ما أصابك، إن ذلكَ من عزم الأمور، ولا تُصَعِّرْ[1] خدَّك للناس، ولا تمشِ في الأرض مرحاً، إن الله لا يحبُّ كلَّ مختال فخور، واقصدْ في مشيك، واغضضْ من صوتك، إن أنكرَ الأصوات لصوت الحمير».

٣ - وقد رُوي أنّ مولاه أمر بذبح شاة، وبأن يخرج منها أطيب مضغتين، فأخرج اللسان والقلب، ثم أمره بمثل ما أمره به أولاً بعد عدة أيام، وبأن يخرج له أخبث مضغتين، فأخرج اللسان والقلب أيضاً، فسأله عن سبب تقديم الجزءَين في كلتا المرتين، فقال: هما أطيب ما فيها إذا طابا، وأخبث ما فيها إذا خبثا.

٥ - وصف علي بن أبي طالب

سأل معاوية بن أبي سفيان عبد الله بن عباس عن علي بن أبي طالب، فقال له: كان والله عَلَمَ الهدى، وكهف التقى، ومجمل الحجى، وبحر الندى، وطود النهى، وبيت العلا، داعياً الورى إلى المحجَّة العظمى،

(١) صعَّر خده: أماله عجباً وكِبراً.

متمسكاً بالعروة الوثقى، خير من آمن واتقى وأفضل من تقمَّصَ وارتدى، وأبرّ من انتقل وسَعَى، وأفصح من تنفَّس وقرا، وأكثر من شهد النجوى سوى الأنبياء والنبي المصطفى.

٦ - خطبة لسيدنا عيسى بن مريم

قام عيسى بن مريم عليهما السلام، خطيباً في بني إسرائيل فقال: يا بني إسرائيل، لا تتكلموا بالحكمة عند الجهلة فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم، ولا تكافئوا ظالماً فيبطل فضلكم. يا بني إسرائيل الأمور ثلاثة: أمر تبيَّن رشده فاتبعوه، وأمر تبين غيّه فاجتنبوه، وأمر اختلفتم فيه فردوه إلى الله.

٧ - قسّ بن ساعدة الإياديّ

أشهر قضاة العرب وفصحائهم وشعرائهم، وأول من استهل خطابته «بأما بعد» وأول من علا على شرف فخطب، وأول من اتكأ في خطبته على سيف وعصا، وأول من أقر بالبعث على غير علم، وأول من قال: «البيِّنة على المدعي واليمين على من أنكر». وفي الحديث: يرحم الله قسَّاً، إني لأرجو أن يبعث يوم القيامة أمة وحده. فقيل له: لِمَ يا رسول الله؟ فقال بقوله: أيها الناس انظروا واذكروا، من عاش مات، ومن مات فات، ليل داج، وسماء ذات أبراج، وبحار تزخر، ونجوم تزهر، وضوء وظلام، وشهور وأيام، ومطعم ومشرب، وملبس ومركب. ما لي أرى الناس يذهبون ثم لا يرجعون، أرضوا بالمقام فأقاموا، أم تركوا فناموا؟

٨ - العمل

العمل ينسج الحديد خيوطاً، يمدها من بلد إلى بلد، ومن قطر إلى قطر، فوق الجبال الشامخات، وتحت البحار الجاريات، فيأتي بما لا يخطر على قلب بشر، يُهيِّئ للكلام مطية يعتليها، فيسبق بها الريح الزرود. وما رسالة البرق إلا كسنحات الخاطر، أو مسارح الخيال. العمل ساحر قادر، يجول في البرية القاحلة غير المأهولة بالسكان. ثم ينعم النظر في تلك الحال

الموحشة ويهز لها مخصرته عجيبة الفِعال، فإذا تلك البيد القفراء تبسم عن خيرات وزروع، تحاكي الذهب في فاقع صفرته، حتى إذا سعر التنور، ودقت السندانات، ودارت رحى العمل تكدح كدحاً انبثقت المدينة، وتفتحت الأسواق، وازدهت ساحات العلوم، وأقيمت معالم الدين كلها، مُشرئبة الشرفات إلى عنان السماء، وكذلك يلوح من المرفأ غابة من الصواري تخفق فوق أسنمتها الأعلام، فيأوي إليه الناس من كل صوب وحدب.

٩ - الأمة والحاكم

إذا كان الحاكم عالماً حازماً، أصيل الرأي، عالي الهمة، رفيع المقصد، قويم الطبع، ساس الأمة بسياسة العدل، ورفع منار العلم، ومهد لها طريق اليسار والثروة، وفتح لها أبواباً للتفنّن في الصنائع، وبعث في أفرادها المحكومين روح الشرف والنخوة، وحملهم على التحلّي بالمزايا الشريفة من الشجاعة والشهامة وإباء الضيم، والأنفة من الذّل، ورفعهم إلى مكانة عليا من العزَّة، ووطَّأ لهم سبل الراحة، وتقدَّمهم إلى أوجه البر. وإن كان الحاكم جاهلاً دنيء الطبع، عديم الهمة، شرهاً جباناً، ضعيف الرأي، أحمق الجنان، خسيس النفس، أسقط الأمة بتصرّفه، وضرب على نواظرها غشاوات الجهل، وجلب عليها غائلة الفاقة، وحاد في سلطته عن جادة الحق، وفتح أبواب العدوان، فيتغلب القوي على حق الضعيف ويختلّ النظام، وتفسد الأخلاق، ويغلب الناس على أمرهم، فتمدّ إليها أنظار الطامعين، وتضرب الدول الفاتحة بمخالبها في أحشائها.

١٠ - الأغنياء والفقراء

ينسى الإنسان وهو في نعيم الحياة ما فيه غيره من بؤس وشقاء، فكأن السعادة عند قوم ألا يفكّروا في مصائب الآخرين، ولا يهتموا بمتاعب الآدميين، حتى لا يؤلموا أنفسهم الرقيقة بهذه المؤثرات. ولذلك ترى صلات الرحم والحنان بين الأغنياء والفقراء مقطوعة إلا بين القليل منهم. وإنا لنرى في مصر من أرباب الثراء، من إذا عمل بدينه وأخرج من ماله الزكاة

المفروضة لا تنقص بها خزائنه. وهل يؤدي إلا تافهاً أو يتصدق إلا بيسير؟ ولكن أنَّى ذلك، وهم يمرحون في مراتع القصف والترف، غير عالمين أن كثيراً يشكون ألم الضنك، ويئنّون تحت أعباء الأمراض، ولا من يرعاهم أو يحزن من أجلهم. ولولا بر الفقير بالفقير على خصاصته[1]، لفَتَكَ الموت بهم فتكاً ذريعاً بعد أن تأكل الأمراض أجسامهم، كما تأكل النار الهشيم.

١١ - تعاقب الصحو والغيث

من تمام النعمة وعظيم الحكمة، أن جعل الله الصحو يتخلل نزول الغيث، فصارا يتعاقبان لما فيه صلاح هذا العالم، ولو دام واحد منهما عليه، لكان فساداً، ألا ترى إلى الأمطار إذا توالت وكثرت، عفنت البقول والخضروات، وهدمت المساكن والبيوت، وقطعت السبل، ومنعت من الأسفار، وكثير من الحرف والصناعات. ولو دام الصحو لجفَّت الأبدان والنبات، وعفن الماء الذي في العيون والأودية، فأضر ذلك بالعباد، وغلب اليبس على الهواء، فأحدث ضرراً آخر من الأمراض، وغلب بسببه الأسعار من الأقوات، وبطل المرعى، وتعذر على النحل ما يجده من الرطوبة التي يرعاها على الأزهار، وإذا تعاقبا على العالم، اعتدل الهواء، ودفع كل واحد منهما ضرر الآخر، فصلحت الأشياء، واستقامت.

١٢ - مصر

مصر كالدرة اليتيمة، أو اللؤلؤة الثمينة يتوارثها ملوك الدول، فكأنها الجوهرة النفيسة استخرجها أول فاتح من معدنها، ثم وضعها وسط لآلئ تاجه الفخيم، ثم جاء بعده آخر اقتلعها بقوته أو بخدعته، ونزعها من ذلك التاج، وصاغها في تاجه الحديث الزاهي، وهكذا فعل بها غيره. وهي في كل تلك الأدوار تقاسي نتائج النقل، وتعاني مشقة الصياغة الحامية والقارصة، تارةً بالنار، وأخرى بالضغط دون أن تستفيد شيئاً غير حظوتها بشرف الوضع، فوق رأس عزيز حكيم، أو قاهر جبار.

---

(١) الخصاصة: الفقر والحاجة والفاقة.

١٣ - الفقر

الفقر رأس كل بلاء، يجلب إلى صاحبه كل مقت؛ فهو معدن النميمة، والرجل إذا افتقر، اتهمه من كان له مؤتمناً، وأساء به الظن من كان يظن فيه حسناً، فإذا أذنب غيره، كان هو للتهمة موضعاً، وليس من خلّة هي للغني مدح، إلا وهي للفقير ذمّ. فإن كان شجاعاً، قيل: أهوج، وإن كان جواداً، سُمّي: مبذراً، وإن كان حليماً، سُمّي: ضعيفاً، وإن كان وقوراً، سُمّي: بليداً. فالموت أهون من الحاجة التي تحوج صاحبها إلى المسألة، ولا سيما مسألة الأشحّاء اللئام، فإن الكريم، لو كُلِّفَ أن يدخل يده في فم الأفعى فيخرج منه سماً فيبتلعه، كان ذلك أهون عليه، وأحب إليه من مسألة البخيل اللئيم.

١٤ - الغد

الغد: شبح يتراءى لناظره من بعيد. فربما كان ملكاً رحيماً، وربما كان شيطاناً رجيماً، بل ربما كان سحابة سوداء، إن هبت عليها ريح باردة، حللت أجزاءها، وفرقت ذراتها، فأصبحت كأنما هي عدم من الأعدام، الذي لم يسبقه وجود.

الغد: بحر خضم زاخر، يعب عبابه وتصطخب أمواجه، فما يدريك إن كان يحمل في جوفه الدرّ والجوهر، أو الموت الأحمر. لقد غمض الغد على العقول، ودقّ شخصه عن الأنظار، حتى إن الإنسان ليرفع قدمه ليضعها، فلا يدري أيضعها على عتبة القصر، أم على حافة القبر.

الغد: صدر مملوء بالأسرار الغزار، تحوم حوله البصائر، وتتسقّطه العقول، وتستدرجه الأنظار، فلا يبوح بسر من أسراره، إلا إذا جاءت الصخرة بالماء الزلال.

كأني بالغد وهو كامن في مكمنه، رابض في محبسه، ينظر إلى آمالنا وأمانينا نظرات الهزء والسخرية، ويبتسم ابتسامات الاستخفاف والازدراء.

١٥ - الملائكة

الملائكة: جواهر مقدَّسة عن ظلمة الشهوة، وكدورة الغضب ﴿لَا

يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[1] طعامهم التسبيح وشرابهم التقديس، وأنسهم بذكر الله تعالى، وفرحهم بعبادته. قال بعض الحكماء: إن لم يكن في فضاء الأفلاك وسعة السموات وخلائق، فكيف يليق بحكمة البارئ تعالى تركها فارغة خاوية، مع شرف جوهرها، وأنه لم يترك قعر البحار المالحة المظلمة فارغاً، حتى خلق فيها أجناس الحيوانات وغيرها، ولم يترك جو الهواء الرقيق، حتى خلق له أنواع الطير تسبح فيه كما يسبح السمك في الماء، ولم يترك البراري اليابسة، والآجام الوحلة، والجبال الراسية الصلبة، حتى خلق فيها أجناس السباع والوحوش، ولم يترك ظلمات التراب، حتى خلق فيه أجناس الهوامّ والحشرات؟!

١٦ - صغار الأمور تُولِّد كبارها

على العاقل ألا يستصغر شيئاً من الخطأ في الرأي، والزلل في العلم، والإغفال في الأمور. فإن استصغر الصغير أوشك أن يجمع إليه صغيراً وصغيراً، فإذا الصغير كبير؛ وإنما هي ثَلْم يَثْلُمها العجز والتضييع، فإذا لم تُسَدّ، أوشكت أن تنفجر بما لا يطاق.

ولم نَرَ شيئاً قط إلا أتى من قبل الصغير المتهاون به. وقد رأينا الملك يؤتى من العدو المحتقر به. ورأينا الصحة تؤتى من الداء الذي لا يحفل به. ورأينا الأنهار تنبثق من الجدول الذي يُستخفّ به: [البسيط]

كُلُّ الحَوادِثِ مَبْدَؤُها مِنَ النَّظَرِ وَمُعْظَمُ النارِ مِنْ مُسْتَصْغَرِ الشَّرَرِ

١٧ - الروح

الروح: هي أصل الحياة والحركة. وأصل الإحساسات والإدراكات والشهوات. تهدي الإنسان في حركاته وسكناته، وأفعاله وأقواله، بما يمتاز به عما سواه من باقي الحيوانات، وهي من أصل الفطرة، طاهرة زكيَّة، وإنما تولدت عنها الشهوات واللذات، لما اتصلت بالأجسام الطبيعية. ثم إن للروح استعدادات تتميز بها. إلا أن كنهها مغيب عن البشر، لا يعرفون حقيقته،

---

(١) سورة التحريم، الآية: ٦ .

وغاية ما يقال فيها إنها جوهرمتميز عن الجسم، ومباين له من حيث إن لها استعدادات لتنجيز عمليات ليس من خواص المادّة تنجيزها. فهي التي تدرك الأشياء بما فيها من المشابهة والمشاكلة، والمباينة والمضادة، وتجيل فيها الفكر، وتقيم عليها الدليل، وتنتج النتائج الصحيحة، وتتبصَّر في عواقب الأمور، وتقضي وتحكم بما يلزم. وهذا لا يوجد في المواد الجسميَّة. وإن الروح سرّ إلهي أودعه الباري في هذا الهيكل الجسماني. قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1].

١٨ - الوقت والعامل

الإنسان مُطالَب من قبل ذاته أن يعمل ليعيش عيشة راضية، ومطالب من قبل معاصريه بمبادلة المنفعة والمشاركة في كل عمل يحفظ لهم حياتهم ووحدتهم، ومطالَب من قبل السلف أن ينظر فيما اعترضهم فيه الوقت، فمنعهم من إتمامه ليهيئوا للفائدة التي أرادوها بالشروع فيه، ومطالب من قبل الخلف أن يعد لهم ما يتخذونه أساساً لأعمالهم، ويشيدون عليه بناء هيئتهم، فهو واقف بين أربع قوّات تتجاذبه، إن أضاع طرفة عين من وقته، طالبته إحدى القوّات، وأقامت كلها في وجهه حرب التأنيب، وبادرت إلى صحيفته، فلوّثتها بسواد تقصيره، وهو ليس بشيء إذا طوي وطويت صحيفته على هذا النمط، وخلت ذكراه من الأثر الحسن.

١٩ - الطيارات الهوائية

اهتزَّت الأمم بالطيّارات، وأُولعت بها الولوع الشديد، فأصبحت أعجوبة العالم في العصر الحاضر، وموضع الغرابة والدهش، وميدان المنافسة بين الممالك الأوربية، كل منها يتطلب قصب السبق في هذا المخترع العجيب، لاالذي لا مشاحة سيقلب أطوار التاريخ ويصبغه صبغة جديدة، فتكون أوسع الدول سلطة وأقواها شوكة، أكبرها أسطولاً في جو السماء، لأنها تكون سيدة الهواء، ومالكة أعنَّة الرياح، تصبّ من نقمتها جللاً، وقنابل على عدوها من

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٥ .

تحتها، وتُزجي فلك التجارة في ملكوت السموات من غير أن يعارضها معارض، أو يزاحمها مزاحم، وتكون السابقة إلى كشف البقاع التي لم يتغلَّب عليها الإنسان، لوعورة مسالكها الطبيعية على ظهر الكرة الأرضية.

لقد نسج الإنسان على البسيطة شباكاً من القضبان، وزَحَمَ الشوارع بالمركبات والسيارات، ومَخَرَ البحر شرقاً وغرباً بالفلك العاديات، فشغل العالم الدنيوي بجميع أسباب الجد والعمل، فلما أن ضاق به ذرعاً، نفذ إلى أقطار السموات يحلِّق في فسيح الفضاء، فللّه دره ما أقواه، فلا القيود الوثيقة ولا العوامل القوية، ولا الطبيعة بقوانينها، ولا جاذبية الأرض نفسها التي يخضع لسلطانها، وعليها جميع الكائنات، بقادرة على أن ترغم منه تلك الروح العالية القوية.

٢٠ - الجدّ في العمل

الجد: أي العمل الدائم، هو شرط لازم للنجاح خصوصاً في هذه الأيام، فقد اشتدَّت المناظرة في العلم، والتجارة والصناعة والزراعة، حتى لم يبقَ سبيل للنجاح إلا للمجتهد فقط. ولا يقوم مقامه شيء، لأن الذكاء الذي يحسبه قوم كافياً كافلاً للنجاح وَهْم لا يخدع إلا المعجبين بأنفسهم، وضَرَبَ القدماء لذلك حكاية معروفة، وهي حكاية أرنب وسلحفاة تراهنا على سباق، ولما كان الأرنب واثقاً بسرعة جريه، تقاعد ونام.

وأما السلحفاة لم يكن لها مع بطء حركتها إلا الكد المتصل، وكان ذلك سبب فوزها. ثم إن أحذق الناس هم الذين اشتهروا بالجد العظيم والعمل الدائم، وما بلغ مقاماً رفيعاً إلا من اعتزل القول بالسعد والنحس، وقاوم المشاقّ التي عارضته، واخترق صفوف ما عاداه من صروف الدهر، إلى أن نال المطلوب. فكان «لنيوس» واضع النظام النباتي المعروف باسمه، فقيراً جداً، يرقع حذاءه بالورق، ويسأل أصدقاءه الطعام. و«مللر» الجيولوجي الشهير صانعاً في قطع الحجارة. و«ستيفنس» مخترع القطار البخاري أجيراً لاستخراج الفحم الحجري من الأرض. وكثيرون غيرهم جدوا ووجدوا.

٢١ - محبة النفس

محبة الإنسان لنفسه، هو إحساس فيه يبعثه على أن يجلب جميع ما يقدر عليه لرضاها، وشفاء غليلها، وقضاء شهوتها.

فالمتَّصف بهذه الصفة يجعل نفسه محبوبه، وبغيته من الدنيا، ومركز دائرة مرغوبة، فلا تنبعث أشعة فكره إليها، وكل ما يتمناه وتشتهيه نفسه من الغنى والزينةوالفخار، يجعله عائداً عليها.

وكذلك يقصر بحبه عن إزالة الشر عنها. فلا رغبة له في نفع الإخوان ولا الأوطان. فجميع ما يجلبه من خير، أو يدفعه من شر، فمتولد من هذه المحبة، فهي بالنسبة إليه سبب الملذات والآلام، ومجلبة الشهوات الجسمية والعقلية.

وهذه الخصلة في الحقيقة خارجة عن حد الإنصاف والاعتدال، لا يعد صاحبها إلا ظالماً لنفسه، طائعاً لهواه، جائراً، جباراً، متملّقاً، حسوداً لمن سواه. فحبّ النفس خصلة جامعة لجميع العيوب والذنوب، مخلّة بالجنس البشري، دالة على دناءة النفس، لأن صاحبها مقصور الهمة على منفعة نفسه لا يعود نفعه في شيء ما على إخوانه وأبناء جنسه. وهي منبع الحرص والطمع.

٢٢ - الناس رجلان

قال بعض الحكماء: الأعمال والمآثر التي تخلدها التواريخ لرجال الأمم، لو لم يكن فيها من اللذة والحبور إلا أن يعرف صاحبها أن له حياة أخرى في صدور قومه، لن تموت بموتهم، ولن تفنى بفنائهم، لكفى بها لذة ونعيماً. وفي الحقيقة شتان ما بين جمال طبيعي تسلبه العوارض وتطمس معالمه، وبين جمال أدبيّ يرتسم في صفحات الدهور يزيد بكرورها، ويعظم بمرورها، وشتان بين من يعمل ليخدم نفسه، وبين من يعمل ليخدم قومه ووطنه. ومن هنا كان الناس رجلين: رجلاً عورة على نفسه، وعاراً على قومه، ورجلاً تجمل به الأمة، ويجمل بها.

٢٣ - الوافد

لا بد للوافد عن قومه أن يكون عميدهم، وزعيمهم الذي عن قوسه ينزعون، وعن رأيه يصدون، فهو واحد يعدل قبيلة، ولسان يعرب عن ألسنة وما ظنُّك بوافد قوم يتكلم بين يدي ملك جبار في رغبة أو رهبة، فهو يوطِّد لقومه مرة، ويتحفَّظ من غريبة من غرائب الفطنة، أم تظنّ القومَ قدَّموه لفضل هذه الخطة، إلا وهو عندهم في غاية الحذلقة واللسانة ومجمع الشعر والخطابة.

٢٤ - الإنسانية

ما ألطف كلمة الإنسانية في الدنيا! وما أشرحها لصدور سامعيها! وما أسكن الخواطر إليها! كان ينبغي أن يكون موضوع الإنسانية أهم درس يُعَوَّلُ عليه في التعليم، ويلَقَّنه الطلبة منذ الحداثة تقويماً لأخلاق الأمم، وتلطيفاً من شرّ النوع البشري الذي يكاد متمدينوه يبتلعون أبناء طينتهم طمعاً وشراهة، فما ظنُّك بغير المتمدينين. لقد كان البحث في الإنسانية، وواجبات الإنسان أجدر بعناية المتمدينة من البحث عن تركيب المواد المستأصلة للنوع، واختراع المهلِكات الجارفة لبني الإنسان، ومن الافتخار بإتقان فنّ الطيران للقذف بالموت من فوق رؤوس الناس.

٢٥ - الفقر ألدّ الخصام

ركب خالد في يوم شديد البرد كثير الغيم، فتعرَّض له رجل في الطريق، فقال له: ناشدتُك الله أن تضرب عنقي. قال: أكفرت بعد إيمان؟ قال: لا. قال: أفنزعت يداً من طاعة الرحمن؟ قال: لا. قال: أقتلت من غير تبيان؟ قال: لا. قال: فما سبب ذلك؟ قال: خصم لجوج قد علق بي، ولزمني وقهرني. قال: من هو؟ قال: الفقر. قال: فكم يكفيك؟ قال: أربعة آلاف درهم.

فالتفت خالد إلى رفقائه، ثم قال لهم: هل ربح أحد التجار كربحي اليوم؟ قالوا: وكيف ذلك؟ قال: عزمت أن أعطي هذا الرجل ثلاثين ألف

درهم، فلمّا طلب أربعة آلاف درهم، توفر ستة وعشرون ألفاً. فقال الرجل: حاشاك، وأعيذك بالله أن تربح على مؤملك. فقال: يا غلام، أعطه ثلاثين ألفاً. ثم قال للرجل: اقبض المال آمناً من خصمك. ومتى عاد يعاندك، فاستنجد عليه بنا. «قاتل الله الفقر، ولو كان الفقر رجلاً لقتلته»[١].

٢٦ - العرب

العرب جيل ساميّ، سكنوا الجزيرة التي سمِّيت باسمهم. فاضطروا بطبيعتها في أكثر مواطنها إلى أن يكونوا رُحّلاً نُزّلاً ينتجعون مواقع المطر، يسيمون فيها أنعامهم التي عليها أكثر اعتمادهم، يشربون ألبانها، ويأكلون لحومها، ويتّخذون من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً وملابس وبيوتاً. فهي جلّ ما بأيديهم من متاع الحياة الدنيا، يحفظونها لتحفظهم، ويحيونها ليحيوا بها. فأوغلوا لذلك في البوادي، حيث البعد عن العفونات التي تضر بنتاج إبلهم، فتولد فيهم أخلاق وعادات امتازوا بها بين الأمم، لأن الظعن وكثرة الترحال، والتعرّض للمؤثّرات الجوّيّة تعوّد الجسم الخشونة، والتقشّف، وشظف العيش، وتحمل المشاق، ويتبع هذا أن النفس تُرَاضُ على ما يشابهها من الأخلاق والعادات إذ الجسم وعاء الروح، والظاهر، كما يقولون، عنوان الباطن. فكان لهم من ذلك أخلاق تأصّلت فيهم، منها الحرية والكرم، والشجاعة والوفاء.

٢٧ - نصيحة

أوصيك ألا تأخذ العلوم من الكتب، وإن وثقت من نفسك بقوة الفَهْم. وعليك بالأستاذ في كل علم تطلب اكتسابه، ولو كان الأستاذ ناقصاً، فخُذْ عنه ما عنده، حتى تجد أكمل منه. وعليك بتعظيمه وترحيبه، وإن قدرت أن تفيده من دنياك فافعلْ، وإلا فبلسانك وثنائك. وإذا قرأت كتاباً، فاحرصْ كل الحرص على أن تستظهره، وتملك معناه. ثم توهم أن الكتاب قد عدم، وأنك مستغنٍ عنه لا تحزن لفقده. وإذا كنت مكبّاً على دراسة كتاب وتفهّمه، فإياك أن تشغل بآخر معه، واصرفِ الزمان الذي تريد صرفه في غيره إليه.

---

(١) لو كان الفقر رجلاً لقتلته: قول مشهور ينسب للخليفة عمر بن الخطاب.

٢٨ - النشأة الحربية

ليس من بين الأمم الأوروبية أمة إلا وتنشئ أبناءها نشأة حربية حرّة، حتى الأمم الضعيفة التي مهما استكثرت من وسائل العدة والقوة، فلا طاقة لها بمقاومة دولة كبرى تنفق في هذا السبيل أموالاً طائلة استعداداً للطوارئ المدلهمَّة، والظاهر أن للنشأة الحربية تأثيراً كبيراً في رقيّ الأمة في الصناعة والتجارة، لأن الرجل إذا نشأ نشأة حربية، أكسبته أخلاقاً شريفة، وجعلته رجلاً شهماً مقداماً يعتمد على قواه وجهوده، ولا يخشى الخطر إذا اقترب منه، بل يقتحم بقلب ثابت، وعزيمة ماضية، ولذلك نرى أبناء الأمم الحربية من أكبر الناس آمالاً، وأشدّهم ثقة بأنفسهم، يُقدمون على المشروعات الكبرى في الأقطار النائية، ويعرِّضون أنفسهم لخطر الخسارة، وبإقدامهم ينجحون ويفوزون.

٢٩ - المرأة في الجاهلية

من أكبر الأدلة على رقي العرب في جاهليتهم، ارتقاء نسائهم، فقد كان للمرأة عندهم رأي وإرادة، وكانت صاحبة أَنَفَة ورفعة وحزم، فنبغ غير واحدة منهن في السياسة، والحرب، والأدب، والشعر، والتجارة، والصناعة، لا سيما في أوائل الإسلام على أثر ما حصل من النهضة في النفوس والعقول، فاشتهرت جماعة منهن بمناقب رفيعة، تضرب بها الأمثال. وأكثرها في المدينة مقر الخلافة الإسلامية في ذلك العهد.

فاللواتي اشتهرن في الجاهلية بالشجاعة وشدّة البطش، وكبر النفس منهن: سلمى بنت عمر إحدى نساء ابن عدي، وعمرة بنت علقمة الحارثية، وهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان. ونبغ في الرأي والحزم غير واحدة، أشهرهن: خديجة بنت الخويلد، والخنساء، وقد حرَّضت أولادها على الثبات في واقعة القادسية. فلما بلغها أنهم قُتلوا في سبيل الجهاد، قالت: «الحمد لله الذي شرفني بقتلهم». وكان لها شأن في الشعر والأدب.

٣٠ - التدخين

منذ شاعت عادة تدخين التبغ، بعد كشف القارة الأمريكية، وضربت في

أنحاء الأرض مشارقها ومغاربها، كان ولا يزال الناس على اختلاف في فائدة التدخين وضرره. فمنهم من تعصَّب له، وغيرهم تعصب عليه. وكان بين آراء الفريقين تضارب شديد وبون بعيد يقف بينهما المتجرّد حائراً، لا يهتدي من أمره إلى صواب، ولا يقدر على الترجيح، إلا تكون ذلك اتباعاً للميل لا اقتناعاً بالدليل.

وليس هذا شأن العامة فقط، بل هو شأن الأطباء المختصين، وقد اجتمع منهم منذ عهد غير بعيد في مدينة واشنطن عدد كبير في مؤتمر، تبادلوا فيه الآراء في شؤون علمهم، وجاؤوا على ذكر أثر التدخين في حركة القلب، فمنهم من أثبت أن للتدخين تأثيراً مضراً على القلب قد يؤدي إلى الموت الفجائي.

ومنهم من أنكر هذا المذهب وبرهن على العكس حتى إذا انفض المؤتمر، كان الخصّيصون على نفس الانشقاق في الرأي، والبعد عن النتيجة كما كانوا قبل اجتماعاتهم.

ولكن جميع العلماء متفقون على أن تدخين التبغ بين القُصَّر والمراهقين مضرّ للغاية، وأن حَلْق المفرط في التدخين، يتأثر تأثيراً شديداً، فيضعف الصوت ويجعل صاحبه معرضاً للنزلة الوافدة. وأشد وطأته على القلب، فإنه يبطئ حركته، ويقلل نبضاته، حتى إنه في فترة كل خمس نبضات، يتوقف القلب مدة نبضة.

٣١ - الأهرام

كان ملوك مصر القدماء كلفين ببناء القبور العظمية لأنفسهم مدة حياتهم على شكل هرمي قاعدته رباعية. وقد وقف الباحثون في هذا الزمن على أطلال نحو ستين هرماً، تتقاطر بعضها وراء بعض في مصر الوسطى من أرياض القاهرة حتى مدخل الفيوم، وأشهرها هي المعروفة بالأهرام الكبرى، وهي قائمة على سفح سلسلة جبال لوبيا إلى الغرب قريباً من المدينة المستحدثة المعروفة بالجيزة، وكل واحد من هذه الأهرام حجرة واحدة أو أكثر لدفن الموتى، يدخل إليها الإنسان من دهاليز منحدرة، منحوتة في نفس

البناء. وكانوا متى وضعوا جثة الملك، أقفلوا الحجرات بصخور من الصوان، ثم يردمون الجزء من دهليز الدخول القريب من الخارج ردماً تامّاً، وبعد ذلك يطلون جميع سطوح الهرم بطبقة كلسية جميلة بهجة، فيختفي الباب، ولا يبقى له أثر يدلّ عليه.

٣٢ - مراسلات العرب

إن المراسلات والمكاتبات من ضروريّات المجتمعات الإنسانيَّة التي لا يُستغنى عنها، فحاجة الناس إلى استعانة بعضهم ببعض ماسة، إذ الدنيا دار أعمال مشتركة المنفعة، ولما كانت البداوة سابقة الحضارة، والكتابة كغيرها من الصناعات، من لوازم التمدين والتمصُّر، والحاجة إلى تبادل الآراء في الشؤون الهامة قائمة والشمل ليس مجتمعاً في كل زمان ومكان، التُجِئ إلى الترسل الشفهي، فكانوا يصطفون لتحمل رسائلهم من يثقون بصدقه وصداقته، وحكمته وأمانته، وقد كثر كلامهم فيما ينبغي أن يكون عليه الرسول، حتى يصلح لتحمّل رسائلهم، ويكون أميناً على وحيهم.

٣٣ - الهيئة الاجتماعية

كيفما يكن المجتمع، تكن حالة مجرميه وأشراره، فإن البيئة الاجتماعية هي المغرس الذي تنبت فيه شجرة الشر والإجرام، فإذا كان الوسط فاسداً، ونظام المجتمع منحطاً، تكونت فيه جراثيم الجرائم، كما تتكون جراثيم الوباء في الأوساط المستعدَّة لإيوائها وتكوينها، وقد أيدت المشاهدات صحة هذا المذهب، لأننا لو نظرنا إلى حالة الإجرام في سويسرة مثلاً، وفي غيرها من البلاد المشهورة بقلة الجرائم فيها، وقارنّا بينها وبين حالة الإجرام في بلادنا، لوجدنا فرقاً كبيراً بين الحالتين، فلِمَ ذلك؟ أَلأنَّ هناك محاكم تستعمل منتهى القسوة والصرامة في توقيع العقوبات، أم لأنَّ الحكومة السويسرية قد تفننت في تعذيب المجرمين في السجون؟ كلا، لا هذا ولا ذاك، فإن نظام محاربة الجرائم في سويسرة هو أخفّ النظامات وطأة على المجرمين.

وإنما السبب الحقيقي في تلك البلاد السعيدة تربية الأمة، وغرس حب

الفضيلة، واستنكار الرذيلة في نفوسهم، وانتشار المدارس في كل قرية، فتؤلّف هذه بين قلوب الناس وهم صغار، وتنشئهم نشأة صالحة طيبة، فيقلّ بطبيعة الحال ميل الناس إلى ارتكاب الجرائم والمنكرات.

٣٤ - ضحية النّيل

كان من عادة المصريين، قبل الفتح الإسلامي، أنه إذا مضى اثنا عشر يوماً من شهر «بؤونة»، يعمدون إلى جارية بكر، فيُرْضونها ويحملون عليها من الحلى أفضلها، ثم يلقونها في النيل ضحية، فأبطل عمرو[١] هذه العادة، وعَوَّض الجارية بتمثال من طين.

والسبب في تلك العادة الشنعاء أن المصريين كانوا ألَّهوا النيل وعبدوه، وأقاموا له التماثيل والرموز مما يستلزم السجود لاسمه، وقد كان لهم في جزيرة «فيلي» بقرب أسوان هيكل، لا تزال آثاره ظاهرة إلى الآن، تعرف بآثار أنس الوجود، وفي هذا الهيكل كان يجتمع جماهير الكهنة. ولم يؤذن لأحد غير الكهنة بوطء تلك الجزيرة، ومن أهم واجباتهم في ذلك الهيكل أن يلقوا حلياً أو قطعاً من الذهب مرة كل سنة ثمناً لما يجود به عليهم بفيضانه، وكان الحلي أكثره على شكل الخواتم، والمظنون أن البندقيين اقتبسوا عادة زفاف البحر الأدرياتيكي، من هذه العادة المصرية .

٣٥ - تأثير البشر بعضهم في بعض

لما كان الإنسان عضواً في الأسرة وفي المجتمع الإنسانيّ، كانت له علاقة شديدة بإخوانه البشر، فينتشر من كل إنسان شيء من التأثير في الذين حوله، كثر أو قلّ، ظهر أو خفي، صلح أو فسد، فيكون كل فرد من أفراد الناس: إما من العاملين الصالحين الذين يبثُّون الخير في الأرض، أو من المفسدين الذين يعيثون فيها فساداً ويملؤونها بالقبائح، وكثيراً ما يكون هذا التأثير على سبيل المثال الذي لا يُسمع له صوت، ولكنه يعمل في النفس خفية ويكسبها الأخلاق الكريمة إذا رأى الصدق والاستقامة والنزاهة والعفَّة والاجتهاد ظاهرة في صفات

---

(١) عمرو بن العاص.

الذين ينظر إليهم، والتاريخ مشحون بأسماء الأبطال، والقوّاد، والعلماء، والصالحين الذين لم يقتصر عملهم على أهل زمانهم، بل امتدّت شهرتهم مدى الأجيال، وكانت سيرتهم مثالاً وقدوة لخلق عظيم.

٣٦ - العلم وقف لا يتحرك

أين الجماعات المشتغلة بالعلوم الإلهية؟ أين منشئو المذاهب والآراء؟ أين المحامون عن العقائد؟ أين المؤلِّفون في الرياضيات؟ أين المخترعون علوماً لم تكن، كالجبر والكيمياء؟ أين من نقل فلسفة أوروبا كما نقل أولئك فلسفة اليونان؟ أين من شرح كتب «كانت» و«ديكارت» كما شرح ابن رشد كتب أرسطو؟ أين من كَتب كُتب أفلاطون؟ أين من جمع علوم الأوائل في سِفْرٍ شامل، كما فعل الفارابي في كتاب التعليم الثاني؟ أين من أَلَّف فوق مائة مؤلَّف في الطب، كابن سيناء والرازي؟ أين من سافر لجمع غريب النبات وتدوينه، كما سافر ابن البيطار إلى بلاد الأغارقة؟ أين من جرَّب في الحراثة ودوّن كأبي زكريا الإشبيلي، الذي رقت تجاربه زراعة الأندلس؟ أين من ساح آسيا وإفريقيا والجزر، وكشف البقاع، ووصف المواطن، كالحسن بن القرطبي؟ أين من طلب العلم وأراد به أن يعرف حقيقة يجهلها، ولذة عقلية يحصلها؟

٣٧ - ذوات الذنب

من الكواكب ما لها ذَنَب عظيم ملازم لها ما شاء الله؛ وهو، كما يرى بالنظر، شعاع من نور ينبعث من الكواكب في الفضاء على هيئة قوس يبتدئ من الكواكب، كلما امتد اتسع وضعف نوره، حتى يتلاشى عند نهاية قوته، وسواء كان الذنب من نور أو أبخرة، فهو ليس بجسم صلب يخشى من تصادمه مع الأرض، إذا حصل وهو من الممكنات الجائزات والذي دل على كونه كذلك، هو إمكان رؤية الكواكب الأخرى المستورة وراءه. وإلى اليوم لا تزال أسراره غامضة عنا، فلا يغرنَّ أحدنا قول البعض عن هذه الأذناب: إنها أبخرة سامة أو غير ذلك من المفروضات الوهمية التي تكثر عادة حول كل عجيبة مجهولة. في سنة ١٨٦١م قد صادم الأرض أحد هذه الأذناب،

ولم يحدث من ذلك أمر غير عادي، اللهم إلا لمعان غريب. هذا، وأشهر الكواكب ذات الذنب هو الكوكب «هالي» الذي سُمِّي، كما هي العادة، باسم كاشف حركته.

٣٨ - تطهير النفس من الأوهام

إن الأوهام الفاسدة، والأباطيل الكاذبة، هي للنفس مثل الأقذار للجسم، فيجب الاهتمام بإزالتها بالوسائل الفعَّالة قبل أن تتراكم على النفس فتمرضها، وتجعلها غير صالحة لتأدية وظيفتها. فقد شوهد أن خرافة واحدة قد تلمّ بالنفس وتمنعها من التمتع بمزايا كثيرة أخرى، وتحرمها من لوازمها، فتقع في أمراض يعبر عنها بمثل الجبن والحقد والبغض، وهي الأمراض التي يُضحِّي فلاسفة الأخلاق كل أوقاتهم للسعي في إزالتها، حتى إنك لتراهم يحذّرون عامة الناس من الوقوع في أشراك الخرافات كما يحذّرونهم من أنياب الأراقم، ومخالب الضراغم.

٣٩ - المرأة في الهيئة الاجتماعية

المرأة شريكة الرجل في الحياة، ولكلٍّ منهما وظيفة مخصوصة، أوجدتها وحتَّمتها طبيعة قوانين طبيعية، لا مناص من اتباعها والسير على اقتضائها. أهمها أن المرأة أُمٌّ يجب عليها أولاً، وقبل كل شيء، أن تسوس منزلها وتراقب خدامها، وتربِّي أولادها، وتقوم بواجبات زوجها، كما أن الرجل عليه أن يكدَّ ويجتهدَ في الحصول على ما يلزم لزوجه وولده من الحاجات أولاً؛ والكماليات إذا استطاع إلى ذلك سبيلاً.

وليس الغرض من تربية البنت أن تكون فيلسوفة أو مهندسة أو شاعرة أو... الخ اللهم إلا عدد قليل منهنّ يخصصنَ لأن يكنّ معلمات، أو ممرضات، أو طبيبات، وهؤلاء لهن مميزات طبيعية تبدو دلائلها من الصغر، وإنما الغرض أن تكون البنت عالمة بوظيفتها في هذه الحياة، ودائرة اختصاصها، وما هو مركزها الاجتماعي.

أما وظيفتها فهي وظيفة الأم الرشيدة التي تقوم بها في كل الأمم الراقية.

وأما دائرة اختصاصها، فهي المنزل ومصادر حاجاته من الحوانيت وما ماثلها. وأما مركزها الاجتماعي، فهو أنها مدبِّرة «لمستعمرة» صغيرة هي المنزل ورئيسة «لجمهورية» بسيطة هي ذرِّيَّتُها: [الكامل]

الأُمُّ مَـدْرَسَـةٌ إذا أَعْـدَدْتَـهـا ... أَعْـدَدْتَ شَـعْـباً طَـيِّـبَ الأَعْـراقِ
الأُمُّ رَوْضٌ إنْ تَـعَـهَّـدَهُ الـحَـيـا[1] ... بـالـريِّ أَوْرَقَ أَيَّـمـا إيـراقِ

٤٠ - حلم معن بن زائدة

لما تولَّى معن بن زائدة إمارة العراق، وكان قد اشتهر بالحلم والكرم، أتاه أعرابي يختبر حلمه. فدخل عليه دون أن يؤذن له. فلما مَثُلَ بين يديه قال له: [الوافر]

أَتَـذْكُـرُ إذْ لـحـافُـكَ جـلْـدُ شـاةٍ ... وإذْ نَـعْـلاكَ مِـنْ جِـلْـدِ الـبَـعـيـرِ

قال: نعم أذكر ذلك، ولا أنساه.

قال الأعرابي: [الوافر]

فَـسُـبْـحـانَ الـذي أَعْـطـاكَ مُـلْـكـاً ... وعَـلَّـمَـكَ الـجُـلوسَ عـلـى الـسَّـريـرِ

قال معن: سبحانه على كل حال.

قال الأعرابي: [الوافر]

فَـلَـسْـتُ مُـسَـلِّـمَـاً مـا عِـشْـتُ دَهْـراً ... عـلـى مَـعْـنٍ بـتَـسْـلـيـمِ الأَمـيـرِ

قال معن: إن السلام سنة يا أخا العرب، تأتي به كيف شئت.

قال الأعرابي: [الوافر]

سَـأَرْحَـلُ عَـنْ بـلادٍ أنـت فـيـهـا ... ولـو جـار الـزمـانُ عـلـى الـفـقـيـرِ

قال معن: إن أقمت فينا، فمرحباً بالإقامة، وإن رحلت عنا، فمصحوب بالسلامة.

قال الأعرابي: [الوافر]

فَـجُـدْ لـي يـا ابـنَ نـاقِـصَـةٍ بِـشَـيْءٍ ... فـإنِّـي قـد عَـزَمْـتُ عـلـى الـمـسـيـرِ

---

(١) الحيا: المطر.

قال معن: يا غلام، أعطه ألف دينار. فأخذها الأعرابي وقال: [الوافر]

قـلـيـلٌ مـا أَتَـيْـتَ بـه وإنِّـي   لأَطْـمَـعُ فـيـكَ بـالـمـالِ الـكـثـيـرِ

قال معن: يا غلام، أعطه ألف دينار أخرى.

فأخذها الأعرابي، وقال: [الوافر]

سـألـتُ الـلـهَ أَنْ يُـبْـقـيـكَ ذُخْـراً   فـمـا لَـكَ فـي الـبـريَّـةِ مـن نَـظـيـرِ

قال معن لغلامه: أعطه ألف دينار أخرى.

فأخذها الأعرابي، وقال: أيها الأمير، إنما جئت مختبراً حلمك لما بلغني عنه. فلقد جمع الله فيك من الحلم ما لو قُسِّمَ على أهل الأرض لكفاهم.

قال معن: يا غلام، كم أعطيته على نظمه؟

قال: ثلاثة آلاف دينار. قال: أعطه في نثره مثلها.

فأخذها الأعرابي، وذهب في طريقه شاكراً.

٤١ - المشورة والسخاء

قال رجل من أهل المدينة: لحقني دين عجزت عن دفعه، فشكوت أمري إلى بعض أصحابي، فأشار إلي بقصد المهلب، أمير العراق، فذهبت إليه وذكرت له حاجتي. فقال لحاجبه: ادفع له ألف دينار. ففعل، ولما عدت إليه، قال لي: هل ما وصلك يكفي لقضاء حاجتك؟ قلت: نعم، وزيادة، أصلح الله الأمير. فقال: الحمد لله على نجاح سعيك، واجتنائك ثمرة مشورتك فأنشدته: [البسيط]

يا مَنْ على الوُجُودِ صاغَ اللهُ راحَتَهُ   فلَيْسَ يُحْسِنُ غيرَ البَذْلِ والجودِ

عَمَّتْ عَطاياكَ مَنْ في الأرْضِ قاطِبةً   فأَنْتَ والجودُ مخلوقانِ مِنْ عُودِ

مَنِ اسْتَشارَ فبابُ النُّجحِ مُنفَتِحٌ   لَـدَيْـهِ فـيـمـا ابْـتَـغـاهُ غَـيْـرَ مَـرْدُودِ

وعدت من عنده فرحاً مسروراً بحسن كرمه، وعطائه الوافر، على غير سابق معرفة.

٤٢ - المشورة

قيل لرجل من بني عبس: ما أكثر صوابكم في مباشرة ما تأتون ومجانبة ما تعرضون عنه! قال: نحن ألف رجل، وفينا رجل واحد حازم ذو رأي ومعرفة، فنحن نشاوره في الجليل والحقير، ونعمل برأيه، فكأنما إذا عملنا برأيه ومشورته، قد عملنا برأي ألف حازم. وجدير بألف حازم أن يصيبوا.

٤٣ - حسن الآداب

أملى مؤدب «الراضي» عليه يوماً قول الحكيم قتيبة بن مسلم:

«من تكبَّرَ أُعجب برأيه، ومن أُعجب برأيه لم يسمع قول نصحائه، ومن اتصف بالإعجاب، وتخلق بالاستبداد، كان من الرشد بعيداً ومن الخذلان قريباً، ومن تكبَّر على عدوه احتقره، ومن احتقر عدوه قلّ احتراسه منه، ومن قلّ احتراسه منه كثر عثاره، ولا يسلم من عدوّه إلا من كان أحذر من غراب، وقد قيل: ليس لمعجب رأي صائب، ولا لمتكبِّر صديق، ومن أحبَّ أن يحبه الناس يحببهم إليه، ويقربهم منه». ولما حفظها الراضي، وفهم معناها ارتاح إليها قلبه، وقال لمؤدّبه: لعل الزمان يبلغني أن أتأدَّب بهذه الخصال الحميدة، وأحلِّي نفسي بهذه الآداب الكريمة. فكان كما تمنَّى.

٤٤ - الإسكندرية

بناها إسكندر الأكبر ملك مقدونية في سنة ٩٥٤ قبل الهجرة، وجعلها مقرّاً لحكومته لحسن موقعها، وجودة موضعها. ولذا رغب الناس في سكناها، وصارت مركزاً للتجارة بين أهل المشرق والمغرب.

وقد كانت هذه المدينة عهد ملوك البطالسة، داراً للعلم والحكمة حيث أسس بها أول هؤلاء الملوك المدعو «بطليموس بن لاغوس» مدرسة شهيرة، أحضر إليها كبار العلماء من اليونان وغيرهم لتعليم العلوم الإلهية، والفلسفية، والرياضية، والطبيعية. فنبغ منها عدد عظيم من أكابر الحكماء وفحول العلماء. وأنشأ بها أيضاً مكتبة جمع فيها الكتب التي كانت تُعدّ من كنوز علوم القدماء. وجلب إليها كثيراً من النسّاخين والمصحِّحين والمجلِّدين

والمذهّبين ثم احترقت عن آخرها في زمن «جول قيصر» أحد أباطرة الرومان، لا في أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كما زعم بعض المؤرخين افتراءً.

٤٥ - صديقك

إن صديقك الذي يبتسم لك في حال رضاك وغضبك، وحلمك وجهلك، وصوابك وسقطك، ليس ممن يُغتبط بمودته، أو يوثق بصداقته، لأنه لا يصلح أن يكون مرآتك التي تكشف لك عن نفسك، فتصدقك عن زينك وشينك[1]، وحلوك ومرك، وهو إما جاهل متهور في ميوله وأهوائه، فلا يرى غير ما يريد أن يري نفسه لا كما يجب أن تراه، وإمّا منافق مخادع، علم أن هواك في الصمت عن عيوبك وتجرير الذيول عليها، فجاراك فيما تريد، ليبلغ ما يريده.

٤٦ - أخذ الرومانيين الأيمان من الوطني

كان الرومانيون في قديم الزمان، يُجبرون الوطني الذي بلغ من العمر عشرين سنة، أن يحلف يميناً يحامي عن وطنه وحكومته، فيأخذون عليه عهداً بذلك، وصيغة اليمين: «أُشْهِد الله على أني أحمل سلاح الشرف، لأدافع به عن وطني وأهله، كلما لاحت فرصة أتمكن فيها من مساعدته، وأُشْهِد الله على أني لا أكدِّر صفو وطني، ولا أخونه، ولا أغدر به، وأني أركب البحار أياماً إذا لزم ذلك في جميع الغزوات التي تأمر بها الحكومة، وعلى أن أحافظ على امتثال القوانين، والعادات المقبولة في بلادي الموجودة في الحال وما يتجدد منها. وأُشهد الله أن لا أتحمل أحداً يجسر أن يخلّ بها أو ينقص انتظامها».

هكذا كانت الأمة الرومانية متشبِّثة بحب وطنها، ولهذا تسلَّطت على بلاد الدنيا بأسرها، ولما انسلخت عنها صفة الوطنية، حصل الفشل بين أعضائها، ففسد حالها، وانحل عقد نظامها.

---

(١) الشين: العيب والقبح.

٤٧ - الحسد

يراد بالحسد معنيان: أحدهما لغويّ، وهو الحسد المذكور في الأخلاق، وذلك أن يتمنَّى الإنسان لغيره زوال النعمة، وهذا شر ذمَّه القرآن الكريم، ومقتته الحكمة، لأنه ينهى عن العمل، وينتج في المجتمع الإنساني نتائج سيئة. والثاني ما يعرفه العامة بالعين، وهو أن يؤثِّر الإنسان في إنسان مثله تأثيراً سيِّئاً بالنظر إليه والتحديق فيه، وهذا النوع موجود لا تمنعه أصول العلم والدين، فإنَّ مما قرره أهل العلم، أنّ للقويّ في هذا العلم تأثيراً في الضعيف، وعلى هذه القاعدة ينطبق ما يسمونه بالتنويم المغناطيسي. والحسد بهذا المعنى لا يبعد أن يكون شيئاً من هذا، وقد ورد في الحديث قوله صلى الله عليه وسلم: «إن العين لتدني الرجال من أكفانها، والإبل من أوضاعها» غير أن أكثر ما يذهب إليه العامة من الغلوّ والمبالغة في تكبير أمر العين وتهويله مبنيّ على الأوهام والأباطيل.

٤٨ - الشراهة المفرطة في الأكل

مُضعِفة لأعضاء الهضم ومُتْلفة لصحة الجسم

من المعلوم أن الشره المفرِط في الأكل، لا يكون صحيح البنية، بل يكون ضعيفها، وعرضة لأمراض قاتلة، لأنه بإفراطه في الأكل، يكَلِّف معدته من الأطعمة ما ليست مكلَّفة به، فيؤدِّيها ذلك إلى عجزها عن هضم جميع ما كلَّفها به، فيفسد إذ ذاك، وينتج من فساده أمراض المعدة والتهاب القناة الهضمية، فيقع في دائها العضال الذي ينتج عنه كثير من الأمراض التي تؤدي إلى الحتف، والهلاك بعد أن يكابد مشاق عظيمة، وأهوالاً جسيمة، ينشأ عنها اضمحلال الجسم وسقمه، وحرمانه من الصحة التي هي لنوع الإنسان أعظم منحة.

فالحذر من شراهة النفس، وتمكينها من إفراط شهوتها في الأطعمة والأشربة حفظاً لصحته، وحذراً من أن يكون قتيل بطنه، وعملاً بقول الحكيم: «البطنة أصل الداء، والحِمْية أصل الدواء». وقوله صلى الله عليه

وسلم: «ما ملأ ابن آدم وعاءً شرًّا من بطنه. حَسْبُ ابنِ آدم لقيماتٌ يُقِمْنَ صلبَه، فإن كان ولا بدّ فثلث للطعام، وثلث للماء، وثلث للتنفس». وقول بعض الحكماء: «البطنة تُذهب الفطنة». وقال أفلاطون: «راحة الجسم في قلة الطعام، وراحة اللسان في قلة الكلام، وراحة الروح في قلة النوم، وراحة القلب في قلة الانتقام».

٤٩ - في الامتحان

يذهب بعض الناس إلى أن الامتحان قد يأتي ببعض نتائج تخالف الواقع، منها أنه قد ينجح في آرائه شخص ناقص الكفاءة، ويخفق آخر كفء. ولكن هذا من قبيل المصادفة إذ قد يصيب الأول شيئاً من القليل الذي يعرفه، فيجيد الإجابة وينجح، ويصيب الثاني شيئاً من القليل الذي لا يعرفه، فيسيء الإجابة ويخفق، وهذه المصادفات نادرة الوقوع، ولا يصحّ أن تجعل حجَّةً تقلِّل من أهمية الامتحان.

ومنها أن كثيراً ما يكون لهيئة الامتحان العام في نفوس بعض الطلاب إذا دخلوه لأول مرة من الهيبة ما يأتي من ورائه اضطراب في الأعصاب أو ذهول لا يتمكّن الممتحن بسببه من إظهار كفاءته، وينشأ عن ذلك تأخره، ومثل هذا الاعتراض لا يصحّ أن يُعدّ من مثالب الامتحان، بل هو دليل على أن التلميذ ناقص التربية لم يألف كمال النظام، ولم يُعَوَّد الشجاعة القلبية، وعدم التهيّب مما لا شر فيه.

والامتحان يكشف هذه الصفات بما يقضي به من السكون العام، والعزلة التامّة لكل فرد واستحالة الحصول على مساعدة طالب آخر أو على كلمة تشجيع من ممتحن، أي: أنه يتطلب من التلميذ أن يتحلَّى بفضيلة ملك النفس وضبطها، ولا يخفى ما لهاتين الصفتين من عظيم القيمة في التربية العملية.

٥٠ - غرض الحياة

يجب أن يكون لكم غرض من أغراض الحياة تجعلونه أبداً نصب العين، سواءٌ أكان ذلك صناعة، أو تجارة، أو علماً، لأن من الواضح البين أنكم إذا

فرقتم قوتكم في أشياء كثيرة، كنتم ضعفاء فيها جميعها، وإذا جمعتموها في شيء واحد، كنتم أقوياء فيه. نعم، لا بد من الدرس الواسع، وتحصيل المعارف العامة، لأن هذا يشحذ عقولكم، ويزيدكم قوة في مباشرة الأعمال، ولكن لا بدَّ من صرف قواكم إلى غرض واحد تختارونه، وتتوقون إليه. غير أن هذا الاختيار لا يكون دائماً في طاقة الإنسان، بل كثيراً ما يندفع إليه باتفاق الأحوال. ولكن عليه أن يتقن مهنته مهما كانت، فلا ترضوا إلا بما يمكن من أفضل وسائل العلم للقيام بها حق القيام؛ لأنه إذا حصل نقص من هذا القبيل، عارضكم. الدهر، وأوجب لكم الفشل والأسف. ومن أقوال الحكماء: «لا تدخلنّ أمراً لا تكون ماهراً فيه»؛ وقولهم أيضاً: «لا تطلب سرعة العمل واطلب تجويده. فإن الناس لا يسألون في كم فرغ وإنما ينظرون إلى إتقانه، وجودة صنعه».

٥١ - الرياضة البدنية

من المعلوم أن الحياة لا تظهر إلا بالحركة؛ لأنّ كل فعل ما اشتمل عليه الجسم من الأعضاء محلّ للفعل، وكل فعل حيويّ مفتقر إلى الحركة، ولذا جعلها الله عامة في الأكوان، وعلّق عليها بقاء الحياة، وبها أرزاق الحيوانات، وجعل بارتباط الصحة بها فوائد عامة، ومنافع خاصة. فهي نعمة جليلة، وحكمة بالغة، والحركة في علم الصحة هي الرياضة البدنية التي هي كما عرفها الأستاذ ابن سينا عبارة عن حركة إرادية يضطر فيها للتنفُّس القوي المتواتر، ولذا كانت أمراً مهماً في حفظ الصحّة وبرء المرض، فإن المداومة بالرياضة الصحية، أعظم سبب لزيادة قوة المريض، وانتظام حركته، لأن البدن يكتسب حالة أصلح لسهولة التنقية وجودة التغذية، إذ الحركة البدنية معدة لتقوية التنفس وموازنته. ولا يخفى أن التنفس هو الميزان به تنتظم أعمال أعضاء الجسم وأجهزته ويحفظ تركيب الدم ويجدّد قوته ونشاطه.

٥٢ - عظماء الرجال

إن الخالق، سبحانه وتعالى، وضع في أفراد من كل أمة خاصيات وملكات، قلَّما يشاركهم فيها أحد، وآتاهم هبات يستخدمونها في نفع البشر،

ونفوساً لا تعرف الملل لدرك مقاصدهم الشريفة، وكلما ارتقت الحضارة في شعب، نبغ فيه رجال يصرفون على الإفادة والاستفادة معظم أعمارهم، ويتمحضون لإحسان الخدمة حتى لا يكادون يرون السعادة والملاذ والخير، وكلّ ما تطمح إليه نفوس بني الإنسان من المعالي إلا فيما هم بسبيله. ومَنْ أنعم النظر في تراجم نوابغ العلماء، ودرس حياتهم حق دراستها، لا يلبث أن يزول عجبه، إذا شاهد كيف يستغرقون في أعمالهم، ويتفانون فيما أخذوا به نفوسهم، فيزهدون في المال والبنين، ويفطمون أنفسهم عن حب المناصب، والمراتب، والزخارف، والسفاسف.

٥٣ - شرب الخمر

[الرمل]

واهْـجُـرِ الـخَـمْـرَ إنْ كُـنْـتَ فَـتًـى كَيْفَ يَسْعَى في جُنونٍ مَنْ عَقَلْ

يشرب بعض الناس الخمر فراراً من الهم، وحذراً من مؤلمات الحياة، وهذا هو الحمق دون ريب، لأنه عوضاً عن أن يفكر في إصلاح شأنه بما يزيل مؤلماته ومسببات همه وغمه، يسطو على أعظم مواهبه النورانية التي تمكّنه من أن يسمع ويرى ويحس، فيقتلها قتلاً، فيزداد همّاً على همّ، ويسهل للمصائب أن تتراكم عليه لأنّه ألقى بسلاحه مستسلماً لمهاجمتها، وهو فاقد عدة الدفاع، فمِثْل هذا مثل رجل مشى في طريق، فقيل له: يا هذا، انتبه، فإن أمامك بئراً بعيدة العمق، فبدلاً من أن يأخذ الحيطة لنفسه من السقوط فيها، أغمض عينيه لكيلا يراها، وسقط فيها مطمئناً، حاسباً أن في إغماض عينيه نجاة له.

٥٤ - التاريخ

لا يستطيع امرؤ أن يُنكر ما لدراسة التاريخ من الفضل العظيم على المشتغلين بتحصيله، فزيادة على ما يستفيدونه منه، على أنه فرع من فروع الدراسة التي من شأنها أن تزيد في معلوماتهم، يجدون في دراسته لذّة وانشراحاً من عدة أمور، منها الاطلاع على عدة من مشاهير الرجال، وعلى

حياتهم الجيدة وما أتوه من أعمال الشجاعة والإقدام، ومن الثمرات الجليلة لبلادهم فتتربَّى عندهم ملكتي الملاحظة والنقد، وتتبعهما بلا ريب قوة الحكم، فيفرّقون بين الغثّ والثمين، ويمقتون الرذيلة ويحاربونها، ويعجبون بالفضيلة ويجعلونها شعارهم اقتداء بمن أعجبوا بأعمالهم من أبطال الأمم. وبذلك ينشؤون على حب الوطن وبذل كل نفيس في نفعه، ويزداد هذا الحب عندهم كلما رأوا ما يدل على عظمة أسلافهم مما يقرؤون أو يسمعون، أو مما يشاهدون في دور آثار بلادهم من الآثار النافعة.

٥٥ - حياة كلها تمويه

إن جلّ من نراهم من المنعمين المترفين والأغنياء الموسرين، لو كشف عن باطن أمرهم وحقيقة حالهم وخبايا معيشتهم من وراء الجدران، لوقفت على ما يوجب الأسى والأسف، ويدعو إلى الرحمة والشفقة، لا ما يدفع إلى الحسد والغبطة، ولأيقنت أن الرجل الأخير الذي يستخرج قوت يومه منغمساً بعرق جبينه، هو أسعد منهم حالاً وأنعم بالاً، والغالب أنه كلما كان مظهر العيش زاهياً زاهراً، كان باطنه قاتماً مظلماً. فلا تغرنكم الظواهر: [الطويل]

ألا إنَّما الدُّنيا كَأَحْلامِ نائِمٍ ... وما خَيْرُ عَيْشٍ لا يكونُ بدائمِ
تَأَمَّلْ إذا ما نِلْتَ بالأَمْرِ لَذَّةً ... فَأَفْنَيْتَهَا هَلْ أَنْتَ إلا كَحالِمِ

٥٦ - الذكاء غير العقل

لا تعجب إن قلت لك: إن الذكاء غير العقل. فاللصوص والمحتالون، والمزوِّرون، والكاذبون، والفاسقون، والمنافقون أذكياء، وليس بينهم عاقل واحد، لأنهم يوردون أنفسهم موارد التلف والهلاك، من حيث لا يغني عنهم ذكاؤهم شيئاً. وكثيراً ما يكون الذكاء الشديد داعياً للجنون، حتى إنك لا تكاد ترى ذكياً من الأذكياء إلا وتَبَيَّن لك من شؤونه وأطواره أحوال شاذة، لا تنطبق على قانون من قوانين العقل، ولا قاعدة من قواعد الطبيعة. وعندي أن أكثر ما يصيب النوابغ الأذكياء من بؤس العيش، وسوء الحال، عائد إلى ضعف في عقولهم، ونقص في تدبيرهم.

وبعد فالذكاء في رأس الإنسان كالسيف في يد الشجاع، وكثيراً ما يضرب الشجاع رأسه إذا كان طائشاً أهوج، ولا يملك نفسه في مواقف الحزن والغضب.

٥٧ - اختيار الكتاب

كما تنتخبون الأصدقاء ولا توالونهم إلا إذا رأيتم فيهم الفضل وحسن الأخلاق، هكذا اختاروا الكتب التي تقرؤونها، فهي خير الجلساء، إذا كانت مما تتضمن حكمة الأزمنة السالفة والحاضرة؛ لأنها تزيدكم علماً وتهديكم صراط الحياة المستقيم، وتفعل فيكم فعل قدوة الصديق إذا كان عاقلاً كريماً، وكما تحذرون جليس السوء ومعاشرة اللئيم، ابعدوا عن الكتب التي تفسد النفس، أو التي لا خير في قراءتها، لما فيها من ركاكة العبارة ورداءة المعنى، وقد كثرت في هذه الأيام ترجمة الروايات وعمد إليها الأحداث، فلا بد من التمييز بينها، واختيار الأدب المفيد منها، ونَبْذ ما كان مضراً بالأخلاق.

وإني لأجفل متى دخلت بعض بيوت هذه المدينة، ورأيت بجانب الأسرة الروايات في لغات شتى، مع أني أعلم حق العلم أن الكثير منها لا يستحق القراءة، وبعضها يجب لها الطرد كما يُطرد السفهاء في الحال، إذا رأيناهم مع أبنائنا وبناتنا.

٥٨ - الإقدام

[الطويل]

إذا كُنْتَ ذا رَأْيٍ فَكُنْ ذا عَزيمةٍ ... فإنَّ فسادَ الرَّأْيِ أَنْ تَتَرَدَّدا

لا بدّ من الإقدام في الفعل بحيث يبادر الإنسان إليه بالهمة، بدون بطء أو تردّد أو تقلّب، لئلا تفوت الفرصة، أو يسأم من الأمر قبل الشروع فيه، قال القائل: [الخفيف]

غَفْلَةُ المَرْءِ عَنْ دواعي المعالي ... مِنْ دواعي تَخَلُّفِ الآمالِ

فكما أنك لا تقف في يوم بارد تقشعر أمام الماء الذي تستحم به، بل

تغطس فيه في الحال، كذلك لا تصرف زمانك في الكلام وعقد النية والمماطلة، بل اذهب واعمل حالاً ما أنت عامله، وليس الممنوع هنا التروِّي والتأني والمشورة، بل الكسل والتردد، لأن الذين يتقلبون في نياتهم ومقاصدهم هم الضعفاء الذين لا يفلحون في الدنيا المشار إليهم في المثل السائر: «يوم العاجز غد». وقال بعضهم: لا تدفعن عملاً عن وقته، فإن للوقت الذي تدفعه إليه عملاً آخر. ولست تطيق ازدحام الأعمال، لأنها إذا ازدحمت دخلها الخلل.

٥٩ - الجامعة

الجامعة هي الاستمساك بسنّة، أو اعتقاد، أو غرض يجتمع حوله فئة من الناس، يشتركون في الأخذ والدفاع عنه، والاجتماع فطريّ في الإنسان، لكثرة حاجاته وعجزه عن القيام بها وحده، فاضطر إلى الاستعانة على قضائها بالاجتماع مع أبناء بلدته، للتعاون وتبادل النفع، فهو يتذرَّع إلى الاجتماع بأسباب تجمعه مع الآخرين، أقدمها القرابة أو جامعة النسب، وتُعرف بالعصبية. ويدانيها في القدم جامعة اللغة. والتفاهم يقرب القلوب ويوحد الأغراض.

فإذا تكاثرت الأقرباء وتشعَّبت القبيلة إلى فروع، أقام كل منها في بلدة، واشترك أبناؤه في الدفاع عنه. وهي جامعة الوطن مع بقائهم مشتركين بجامعة اللغة أو النسب، لأنهم من أصل واحد؛ وأهل البلد الواحد يقسمون إلى جماعات يجتمع بعضهم بجامعة المهنة، وآخرون بجامعة الجنس، أو اللون، أو الزواج، أو العزوبة مع اشتراك كل فرد من إحدى تلك الجامعات بصفة أخرى مع جامعة أخرى، فيكون شريكاً مع بعض الناس في جامعة النسب، ومع غيرهم بجامعة الدين، ومع غيرهم بجامعة اللغة، فتضارب الجامعات، وتقاطعها عجيب.

٦٠ - الشعر قبل الإسلام

قد تقرأ من شعر العرب قبل الإسلام، فلا تفهمه، وإن فهمته، فلا ترى

نفسك مرتاحة إليه راغبة في الازدياد منه. وإذا سألك سائل عن السبب، قلت: إن فيه ألفاظاً غريبة وتراكيب غير مألوفة يعسر استخراج المعنى منها. فما تشعر به صحيح، ومعك بعض الحق فيما تقول إن لم يكن كله، ولكن الذنب ليس على الشعر نفسه، وليس التقصير من أولئك الشعراء أنفسهم. وإنما الذنب علينا، لضعف ملكتنا اللغوية، وعدم ممارستنا فَهْمَ شعر الجاهلية.

٦١ - أصل الطاعون

كانت الناس في قديم الزمان تعتقد أن الطاعون من وخزات الجن برماحها، وأن لا شيء يقوى على رد تلك الرماح القوية الخفية عن العيون. ولكن البحث أوصلهم اليوم إلى اليقين بأن الطاعون جراثيم قتالة، لا تدركها العيون المجردة، وأن لها وخزاً خفيّاً دونه وخز الرماح. إلا أنهم استعانوا بالعلم، فصنعوا آلة تجسم الأشياء الدقيقة، وتعظمها وتبرزها مرئية للعين، فوقفوا بها على حقيقة ذلك الوباء، واستنتجوا طرق الوقاية منه، فتذرَّعوا لدفع أذاه، وردّ غائلته.

٦٢ - سيل العرم

إن اليمن وسائر جزيرة العرب أرض تقلّ فيها الأنهار والينابيع. واعتماد الناس في ري مغارسهم إنما هو على مياه الأمطار، فإنها تجتمع في مجاري الأودية، وتسيل كالأنهار، فإذا انقضى الشتاء، جفّ معظمها. وملافاةً لذلك، كانوا يجعلون في عرض الأودية سدّاً من الحجر يعترض مسير الماء، فيجتمع فيه، ويرتفع حتى يسقي أعالي الأراضي. وكان من جملة تلك السدود في اليمن سد كبير يقال له العَرِم، بناه ملوك اليمن القدماء من حجارة ضخمة، وجعلوا فيها خروقاً يصرفون منها الماء على مقدار ما يحتاجون إليه، وكانت له حفظة يقومون بتعهّده وتوزيع مياهه، فتقادم عهده حتى تصدع، وأهمل أمره حتى تهدم، وصعدت المياه، فأغرقت الحرث والنسل، وسُمِّي ذلك السيل سيل العرم.

٦٣ - تربية الأَطفال

لقد أثبت أساتذة التعليم حقائق لم يبق فيها ريب، ولا شبه ريب. ومن أهمها حقيقة تنطبق على المثل البسيط المشهور، وهو «العلم في الصغر كالنقش على الحجر»، فإن هذا المثل الذي نكاد نراه مبتذلاً لكثرة شيوعه يحوي معنى كبيراً جليلاً، إذ ليس هناك شك في أن إعداد الصغير، وهو في غضاضة الإهاب، يكون له أثر كبير في زمن الشباب، فإن أفكار الشاب أو الكهل إذا تغيرت وتبدلت فبالاختبار والدرس، أو لأنه يتبع في سن الرشد خطة لا تنطبق على خطته الصبيانية، فإن أثر التربية الأولى لا يزول بل يبقى أساساً، ولقد دلّ اختبار الأساتذة أيضاً، أن العادة تكاد تصبح خلقاً بقوة الاستمرار. فإذا عَوَّدتَ الطفل مثلاً أن يكون ضعيف الإرادة، أو سفيهَ اللسان، أو قليل الترتيب، رَسَخت فيه عادته، وصعب تغييرها. فكم من ذكيّ يرى عيبه، ويذكره على مسمع من الناس، ثم تجده عاجزاً عن إصلاح نفسه.

أليس هذا من نقص التربية النفسية؟

٦٤ - لكلّ حاسّة لذّة

إن الخالق، جلت عظمته، قد جعل من فضله ونعمته على الإنسان لكلّ حاسّة لذة، فلذة النظر في تناسق المرئيات وترتيب أجزائها، وذلك هو الجمال. ولذّة الذوق في ائتلاف الطعوم، وذلك هو العذوبة. ولذة الشمّ في لطف الرائحة، وذلك هو الشمم. ولذة اللمس في تناسب أجزاء الملموس، وذلك هو النعومة. ولذة السمع في انتقال الصوت وحركة توقيعه، وذلك هو الغناء.

٦٥ - الغلبة للأقوى

كما أن السمك الكبير يأكل الصغير، والوحش الضاري يفترس الضعيف الصاغر، والنبات القويّ يقتل الضئيل النحيل في مملكتي الحيوان والنبات، كذلك الحيوان الناطق تسري عليه هذه القاعدة. وإذا كنّا لا نرى بني آدم يأكل بعضهم أجسام بعضٍ في أوروبا، فإنَّ منهم من أكلها مريئاً في أيام المجاعات

القديمة، ومنهم من لا يزال يأكلها في البلدان الهمجية، على أن الإنسان المتحضِّر آخذ الآن بأكل البلدان بدلاً من أكل جسم الإنسان، فكم من أمة قوية أغارت على جارتها الضعيفة، فسحقتها وابتلعتها، لا لشيء سوى الطمع الأشعبيّ، وحب الأَثَرة، والانفراد بالسلطة. وهكذا يبقى ذلك الناموس الطبيعي ما دامت الأرض والسماء: [الرجز]

قَـتْـلُ امْـرِئٍ فـي غـابـةٍ جَـريـمَـةٌ لا تُـغْـتَـفَـرْ
وقَـتْـلُ شَـغْـبٍ آمِـنٍ مَـسْـأَلَـةٌ فـيـهـا نَـظَـرْ

٦٦ - الاقتصاد في الزمان

الاقتصاد في الزمان واجب، كالاقتصاد في المال، لأن من يشغل زمانه بالعمل، يشغله بالربح، ومن يشغله بالكسل واللهو، لم يخسر ما يمكن ربحه فقط، ولكنه يخسر أيضاً شيئاً كبيراً من حسن الأخلاق، فإن الإنسان يكون على حسب ما يتصرف في الزمان. قال «سنكاء» الفيلسوف الروماني: إننا نشكو قصر الزمن ونحن لا نعرف كيف نشغل ما عندنا منه. وإننا نصرف حياتنا في البطالة أو بعمل ما لا فائدة منه أو بإهمال ما يجب علينا. نشكو أبداً قصر العمر، بحيث يكون لكل ساعة من ساعات النهار والليل ما هو خاص بها. فإن الذين اشتهروا بكثرة الأعمال وإتقانها وجودتها من رجال العلم والسياسة والتجارة والصناعة، هم الذين جعلوا لكل أمر وقتاً، فرتبوا زمانهم ونسقوه، استدراكاً للمهام التي كان قضاؤها مستحيلاً، لولا نظام العمل الذي نهجوه.

٦٧ - لا خير في علم بدون عمل

إن العاقل، إذا فهم كتاباً، وبلغ نهاية علمه فيه، ينبغي له أن يعمل بما عَلِمَ منه لينتفع به، ويجعله مثلاً لا يحيد عنه. فإذا لم يفعل ذلك، كان مثله كالرجل الذي زعم أن سارقاً تَسَوَّرَ عليه وهو نائم في منزله، فعلم به، فقال: والله لأسكتَنَّ حتى أنظر ماذا يصنع، ولا أذعره، ولا أعلمه أني قد علمت به. فإذا بلغ مراده، قمت إليه، فنَغَّصْت ذلك عليه. ثم إنه سكت عنه، وجعل

السارق يتردَّد، وطال تردده في جمع ما يجده، فغلب الرجل النعاس، فنام. وفرغ اللص مما أراد وأمكنه الذهاب. واستيقظ الرجل، فوجد اللص قد أخذ المتاع وفاز به، فأقبل على نفسه يلومها، وعرف أنه لم ينتفع بعلمه باللص، إذ لم يستعمل في أمره ما يجب. فالعلم لا يتم إلا بالعمل، وهو كالشجرة، والعمل به كالثمرة.

٦٨ - فضائل الأمانة

كان لأعرابيّ جواد يعزّه كثيراً، والناس يبذلون له في ثمنه أموالاً طائلة، فلم يقبل أن يبيعه، مهما عظمت قيمته. ففكَّر رجل في الاحتيال على أخذه منه. وقد اعتاد صاحبه السير به في طريق معهود، فجلس المحتال في ذلك الطريق، وأظهر أن الأعداء خلفه يطالبونه بثأر، واستغاث بصاحب الجواد، لينقذه منهم. فنزل، وأذن له بالركوب أوَّلاً، ليركب هو خلفه ويفرّا من الأعداء، فينجو صاحبه.

ولما ركب المستغيث، أطلق للجواد عنانه، ولم ينتظر الأعرابي ليركب معه، فناداه قائلاً: إني أريد أن أقول لك كلمة واحدة. فوقف على بعد، وقال له: قلْ كلمتك، قال: إني وهبت لك الجواد، ولا أرجع في هبتي، ولكن أخاف أن يسمع الناس بفعلتك، فلا يأمن بعضهم بعضاً. فنزل الرجل عن الجواد، وقال لصاحبه: تفضَّلْ، خذْ جوادك، فنفسي لا ترضى أن أكون سبباً في رفع ثقة الناس بعضهم من بعض. فسلَّمه الجواد وانصرف.

٦٩ - العدل أساس الملك

غَصَب أحد الولاة ضيعة لرجل، فشكا أمره إلى الخليفة العباسي (المنصور)، وقال له: أصلحك الله يا أمير المؤمنين، أأذكر حاجتي، أم أضرب لك قبلها مثلاً؟

قال: اضربْ لي قبلها مثلاً. قال: إن الطفل إذا أصابه ما يكره، يشكو إلى أمه، ظنّاً منه أنه لا ناصر له غيرها، فإذا ترعرع، شكا إلى أبيه، لاعتقاده أن أباه أقوى من أمه على نصرته، فإذا صار رجلاً، ووقع به أمر، شكا إلى

الوالي لعلمه أنه أقوى من أبيه، فإن ازداد عقله شكا إلى السلطان، لعلمه أنه أقوى من جميع الناس، فإن لم ينصفه، شكا إلى الله تعالى.

وقد نزلت بي نازلةٌ، وليس فوقك أحد من الخلق أقوى منك، فإن أنصفتني فيها، وإلا رفعت أمري إلى الله، إذ ليس أقوى منك إلا هو. قال: بل ننصفك، وكتب إلى واليه بأن يرد إليه ضيعته، ويهيئ له أسباب راحته، ويؤمن له شؤون معيشته: [الكامل]

لا تَسْأَلَنْ بني آدمٍ حاجَةً ... وسَلِ الذي أَبوابُهُ لا تُحْجَبُ

الله يَغْضَبُ إنْ تَرَكْتَ سؤالَهُ ... والآدَمِيُّ حينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

٧٠ - الأخلاق الكريمة ترفع شأن صاحبها

أحضر «الرشيد» يوماً رجلاً ليوليه القضاء، فقال له الرجل: إني لا أحسن القضاء لأني غير فقيه، فقال له الرشيد: فيك ثلاث خصال تؤهِّلك للقضاء: لك شرف، والشرف يمنع صاحبه من الدناءة. ولك حلم، والحِلْم يمنعك من العجلة، ومن لم يتعجل، فهو قليل الخطأ.

وأنت رجل تشاور الناس في أمورك، ومن شاور كثر صوابه. وأما الفقه، فنضمّ إليك من تستعين به. فتولى الرجل القضاء زمناً طويلاً، لم يعرف أثناءه للرجل تقصير في عمل من أعماله. وكانت أحكامه كلها دائرة على محور السداد والحكمة.

٧١- التواضع و كرم الأَخلاق

قال رجل: كنّا غلماناً نلتقط البلح، الذي تلقيه الريح من نخل المدينة، فمر علينا أمير المؤمنين، عمر بن الخطاب، رضي الله عليه، ففرّ الغلمان، وثبتُّ أنا مكاني. فلمّا قرب مني، قلت: يا أمير المؤمنين، إن ما معي هو ما ألقته الرياح. قال: أرني أنظر إليه، فإنه لا يخفى عليَّ. فنظر في حجري وقال: صدقت. فقلت: يا أمير المؤمنين، هل ترى هؤلاء الغلمان؟ والله لئن انطلقت وتركتني، لأغاروا عليَّ وانتزعوا ما معي فمشى معي حتى بلغني مأمني.

٧٢- الأَخلاق الفاضلة

وصف سيّدُنا معاوية بن أبي سفيان عبدَ الملك بن مروان لسيدنا عمرو بن العاص، فقال: ما أكرم مروءة هذا الفتى! فقال له عمرو: وكيف ذلك؟ قال: أخذ بأخلاق أربعة، وترك أخلاقاً أربعة. أخذ بأحسن البِشْر إذا لقي، وبأحسن الحديث إذا حَدث، وبأحسن الاستماع إذا حُدِّث، وبأيسر الأمور إذا عوهد، وترك مشورة من لا يثق بعقله، وترك مجالسة من لا يجتمع معه في دين، وترك مخالطة لئام الناس، وترك من الكلام كلّ ما يعتذر منه.

٧٣- علم السياسة

علم السياسة هو طبّ الاجتماع الإنساني، وطالما أدى الجهل به الى شقاء البشر، قال لوبون: إنك لا ترى أحداً يقرأ الفلك أو الجبر، ثم يحاول حل مسائل فلكية، أو معضلات جبرية، ولا ترى أحداً كذلك لم يتعلم التشريح، ثم يحاول أن يخيط عرقاً مقطوعاً مثلاً، ولكن نرى كل يوم رجالاً لا يفقهون شيئاً من علم السياسة يسوسون الأمم، ويضعون القوانين، ويسنّون النواميس، غافلين عن الأخطار والأزمات التي تنجم من عملهم هذا، مع أن خطأ الجاهل بالطبّ يودي بشخص واحد، وهذا الخطأ يودي بأمّة: [البسيط]

لا تُصْلِحُ الناسَ فوضى لا سَراةَ لَهُمْ ... ولا سَراةَ إذا جُهّالُهُمْ سادوا
تُهْدَى الأُمورُ بأَهْلِ الرَّأْيِ ما صَلُحَتْ ... فَإِنْ تَوَلَّتْ فبالأشْرارِ تَنْقادُ
إذا تَولَّى سَراةُ الناسِ أَمْرَهُمو ... نما على ذاكَ أمرُ القَوْمِ فازْدادوا
كَيفَ الرشادُ إذا ماكُنْتَ في بَقَرٍ ... لَهُمْ عَنِ الرُّشْدِ أغلالٌ وأقيادُ
أَعْطَوا غواتَهمو جَهْلاً مقادَتَهُمْ ... فَكُلُّهُمْ في حبالِ الغِيِّ مُنْقادُ

٧٤- من ربح من عمل فليلزمه وكل ميسر لما خلق له

إذا اخترتم صناعة، وجعلتموها غرض الحياة، وتعلمتموها حق العلم، فالزموها بلا انقطاع حتى النهاية، لأنكم إذا قعدتم عنها، أو بدلتموها بغيرها، كانت النتيجة دائماً خيبة الأمل، ثم إذا كان جهدكم في العمل عظيماً، وقدرتكم في الصناعة شهيرة، ومواظبتكم على أموركم غير منقطعة، ولم تكن

صفاتكم صفات الصدق والاستقامة والطهارة، لم تنالوا شيئاً، لأنه كما يغرق السفينة ثقب واحد، كذاك فَقْد شيء من هذه الأوصاف كاف لإسقاطكم وتعطيل آمالكم، ألم تروا المرة بعد المرة أن الكاذب، والخائن، والسِّكِّير، والمقامر، والفاسد، لايفلحون، ومهما كانت طريقكم مظلمة، وعرة طويلةً، فلا تخافوا ولا تملوا، ولا تركنوا الى نسيب أو صديق، وسواء أحبكم الناس أو أبغضوكم، وسواء تملقوكم أو احتقروكم، الزموا أبداً طريق الاستقامة والصلاح، وتوكَّلوا على الله، ولاتخافوا أحداً، ولا تخشوا في الحق لومة لائم.

٧٥- صاحب الدنيا

مثال صاحب الدنيا مثل رجل نجا من خوف فيلٍ هائج إلى بئر، فتدلَّى فيها، وتعلَّق بغصنين كانا على سمائها، فوقعت رجليه على شيء في طيّ البئر، فإذا حيات أربع أخرجن رؤوسهن عن أجحارهنّ. ثم نظر، فإذا في قاع البئر تنين فاتح فاه، منتظر له، ليقع فيأخذه. فرفع بصره إلى الغصنين، فإذا في أصلهما جرذان أسود وأبيض، وهما يقرضان الغصنين دائبين لا يفتران. فبينما هو في النظر لأمره والاهتمام لنفسه، إذ أبصر قريباً منه كوارةً فيها عسل نحل، فذاق العسل فشغلته حلاوته وألهته لذته عن الفكرة في شيء من أمره، وأن يلتمس الخلاص لنفسه. ولم يذكر أن رجليه على حيات أربع لا يدري متى يقع عليهن. ولم يذكر أن الجرذين دائبان في قطع الغصنين، ومتى انقطعا، وقع على التنين. فلم يزل لاهياً غافلاً مشغولاً بتلك الحلاوة، حتى سقط في فم التنين فهلك.

٧٦- النوم

النوم عامل من أكبر العوامل في قوى الحيوان، وهو لا يقل عن التنفس والهضم في أهميته. والذين يراعون جانب الاعتدال في معيشتهم ينالون حظاً كاملاً منه، ويتمتعون بنتائجه الحسنة. وليس ثمة قاعدة يعرف بها مايحتاج إليه كل فرد منه، ولا الناس متساوون في حاجتهم إليه في كل زمان ومكان، غاية

ما في الأمر أن كل إنسان يحتاج إلى قدر معلوم منه، وملائم لحالته كل يوم، لإعادة الموازنة في القوة العصبية التي فقد منها ما فقد، على أثر أشغاله وأعماله اليومية، وإلاّ اختلّ الجهاز العصبيّ بوجه من الوجوه.

ولما كان النوم أكمل شكل من أشكال الراحة، كان الصغار أكثر الناس حاجة إليه من الكبار، والضعفاء من الأقوياء. فمهما كان نوم الطفل والرجل منهوك القوى كثيراً، فهو لايزيد عن الحد اللازم. أما الرجل القوي الجسم فكثرة النوم تضر به غالباً.

٧٧- المعتصم بالله

حدثتنا السِّيَر أنه حين أغار تيوفل، ملك الروم على عمورية، صاحت امرأة هاشمية من اللواتي وقعن في أيدي جنده: وامعتصماه، فأجابها الحارس متهكّماً ومستهزئاً: سيأتيك المعتصم على أدهم. فلما انتهى ذلك إلى أمير المؤمنين المعتصم بالله أحد خلفاء الدولة العباسية، وهو في عاصمة خلافته تخلى في الحال عما بين يديه من الشؤون، ونهض وهو يقول: لبَّيك لبَّيك، وماعَتَمَ أن استنفر جيشه الجرار، فساروا وهو يقودهم، وكثير منهم على دهم الخيل. فلما هاجم العدو، وشّد عليه وطأته، ومزَّق شمله كل ممزق، لقي تلك الأخيذة، فصاح قائلاً: لبيك المعتصم، وهنالك أعقبه أحد جنده بتلاوة قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1].

٧٨- المعتصم بالله أيضاً

حدثنا التاريخ كذلك عن هذا الخليفة العادل، أنه رأى ذات يوم، وهو على جواده، كلباً مكسور الساقين، يلهث من شدة العطش، فدفعه الرفق بالحيوان إلى النزول عن جواده، فنزل، وصار يغترف بيديه من النهر، ثم يعود إلى الكلب، وقد فعل ذلك مرات متتالية حتى حرك الحيوان ذنبه شكراً له على برِّه بعد أن روى ظمأه. ولما عاد إلى عرش الملك، جمع الأمراء والأغنياء، وألف تحت رعايته جمعية الرفق بالحيوان لأول مرة في التاريخ.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢١ .

٧٩- حياة الأمم

قالت الحكماء: إن الحياة هي مجموع الوظائف التي يقوم بها أعضاء الجسم، والموت هو بطلان تلك الوظائف، وهو أقرب التعاريف وأسلمها. وعليه، فلا بأس من إطلاق الحياة على الأُمَّة، فيقال: هذه الأمة حية، إذا كان أفرادها الذين هم بمنزلة الأعضاء لجسمها قائمين بوظائفهم، ويقال: الأمة ميتة، إذا أخلد أفرادها إلى النوم، ولم يقوموا بواجباتهم التي يفرضها عليهم قانون البقاء في عالم الوجود.

٨٠- علم الأَخلاق

علم الأخلاق هو طبّ النفس، ومن العجب أن نرى الإنسان، إذا أصابه دمل في جسمه، أسرع إلى العلاج والطبيب، وفي نفسه عشرون دمّلاً لا يلتفت إليها، وإن أنهكته في الحقيقة آلامها، ولا سبب لهذا إلا فقدان هذا الطبّ من بيننا الآن، مع نموه عند غيرنا من الأمم، وحسبك أنه أُلِّفَ في مرض ضعف الإرادة وحده عند المسلمين كتب ذات أسفار. فيجب أن يكون هذا العلم ملكة في النفس، كملكة النمو في الإنسان، حتى أحوال المرء على قواعده بلا تكلّف، فتصير الفضائل، كالوقوف عند الفضيلة في الأعمال، والحق في الأقوال والاعتماد على النفس خلقاً له وسجية.

٨١- تأثير الكواكب في النفوس

هناك فريق من الناس يقتفون أثر قدماء المصريين والبابليين في الاعتقاد أن للكواكب تأثيراً شديداً في أفكار وحالات البشر الروحية، وهم يقولون: مادمنا نجد للقمر التأثير الظاهر على مياه البحر في المد والجزر، وعلى نمو بعض الأزهار و النباتات، بل واتجاه سمت بعض الأشجار، ومادام له على المجموعة العصبيَّة التأثيرات الواضحة التي جعلت القدماء تُسمّي الأمراض العصبية والعقلية بالأمراض القمرية، حتى أن مستشفى المجاذيب إلى اليوم يسمى في الغرب الملجأ القمري، لشدة الانفعالات وتنبّه النفوس العصبية في النصف الأول من الشهر، وسكونها وانقباضها في النصف الأخير منه، فإذا

كان هذا تأثير القمر، وهو ذلك الكوكب الصغير، فكيف تنكر تأثير بقية الشموس والكواكب السيارة، والثوابت العظمى؟.

٨٢- النَّعام

غير خافٍ ما للنَّعام من المزايا بين ذوات الأجنحة الضخمة التي لاتستطيع الطيران، فإن منافعه في عالم التجارة كبيرة من حيث استعمال ريشه الظريف في التحلي والزينة، بل هو ركن عظيم من أركان الثروة الصناعية والتجارية، وقد أدرك ذلك بعض الأمم القديمة المُتَمَدْينة كالرومان وغيرهم، فعنوا بتربيته عناية عظمى، وأدخلوا ريشه في التجارة، فحصلوا من ورائه على أرباح جزيلة. أما الأمم الحديثة، فلم تنتبه إلى أمره الخطير إلا في الأزمنة المتأخرة، فاعتنت به واتسعت نطاق تجارته، فامتلأت الخزائن من ثروته.

٨٣- النمل

النمل حيوان حريص على الغذاء، وهو عظيم الحيلة في طلب الرزق، فإذا وجد شيئاً، أنذر رفاقه لتأتي إليه، ويقال: إنما يفعل ذلك منها رؤساؤها، ومن طبعه أن يدخر من قوته في الصيف للشتاء، وله في الادخار من الحيل أنه إذا ادخر ما يخاف إنباته قسمه نصفين ما خلا الكبيرة، فإنه يقسمها أرباعاً، لما أُلهم من أن كل نصف منها لا ينبت، فإذا خاف العفن على الحبّ، أخرجه إلى ظاهر الأرض، ونشره. وإذا أحس بالغيم، ردّه إلى مكانه خوفاً من المطر، فإن ابتل شيء منه، بسطه يوم الصحو في الشمس. ومن عجائبه اتخاذ القرية تحت الأرض، وفيها منازل ودهاليز وغرف وطبقات ومنعطفات، يملؤها حبوباً وذخائر للشتاء.

٨٤- البخار

إن للبخار فوائد جمَّة، ومنافع كثيرة، ومزايا عديدة، فقد نقل الإنسان من ظلمات الوحشية إلى نور الحضارة و التقدم، وأنقذه من وهدة التأخر إلى ذروة الخير والسعادة. فإن الأمم كانت في تباعد وانقطاع، وتناءٍ وافتراق، لا تعرف الواحدة ما تعمله الأخرى، ولا تدري مايكون من الحوادث. لا تبادل،

ولا تعارف، ولا تعاون، ولا تآلف، تعاني الأهوال، وتقاسي الشدائد، وتضعف من قوتها، وقوة الحيوان معها، وتنفق من أموالها، وتصرف من أزمانها إن أرادت حرث الأرض، أو نقل متاع، أو سفراً من بلد إلى آخر، أو أحبَّت اتساع ملكها، والوقوف على أحوال بلادها، إلى غير ذلك مما تحتاجه الأمة وتفتقر إليه.

فلما ظهرت قوة البخار، تلك القوة التي غيَّرت الأرض ومن عليها، ارتبطت البلاد، واتصلت الممالك، وتقدمت العلوم والمعارف، وتم التآلف والتعارف، والتحابب والتعاضد، وحصل التنافس، واستضاءت الأمم بآراء العلماء وأفكار الحكماء، وتوطَّدت دعائم الأمن، وساد النظام، وتوفَّرت الأزمان والأموال، وقوة الإنسان والحيوان.

عثر الإنسان على قوة البخار، فسخَّرها في حرث الأرض، وريِّها، والانتفاع بنباتها، واستعملها في رفع المياه من مجاريها العميقة، ونقل المصنوعات من بلدانها البعيدة، كما أنه وطَّدَ بها سلطته، وزاد قوته، وحفظ بلاده، وانتفع بها في مأكله، وملبسه، وأغلب أموره، إلى غير ذلك من الفوائد الجليلة، والمنافع الكثيرة التي غيرت مدنية الإنسان، وأكسبته مدنيَّة جديدة وحضارة جديدة، هي بلا ريب خير من الأولى، وأحسن منها، فسبحان الذي سخَّر لنا هذا، وما كنا له مقرنين.

٨٥- حق الأمة على أبنائها

كان في إحدى الممالك امرأة ثرية تملك من الذهب والفضة والقراطيس المالية، ومن العقار شيئاً كثيراً. ومع هذا كانت معتدلة في معيشتها، تأكل أكل متوسِّطي الحال من الناس، وتسكن سكناهم، وتُنفق من دخلها في الأعمال الخيرية. واستمرت على ذلك زمناً طويلاً، فدهش الناس من تصرّفها مع ما لها من الغنى والثروة.

وفي يوم سألها أحد الناس: لِمَ لا تنفقين على نفسك كثيراً شأن الأغنياء؟ فأجابته قائلة: إنما أُنفق بقدر ما أستحق، وأترك الباقي حقّاً لأمتي

وبلادي. وإنّي ما بلغت هذا المبلغ، وماتمكّنت من جمع هذا المال إلاّ بحسن معونتهم لي، فلا يصحّ أن أبخسهم حقّهم.

٨٦- الامتحان

إن أغلب الناس ميّال إلى الراحة والكسل، بغيض إليه العمل. فهو محتاج إلى مايبعث فيه النشاط، ويسوقه وراء الجد والاجتهاد. وإن الامتحان الذي يكرم فيه المرء المسؤول أو يهان، ويصير عزيزاً أو ذليلاً، لأعظم وازع وأكبر سائق يسوق إلى اقتناع المعارف والعلوم والصنائع والفنون التي تكسبه الحمد، وحسن الذكر، وتفيده وتعود على بلاده وأمته بالخير والسعادة.

والامتحان هو السبب الوحيد الذي يقوّي خلق التنافس في نفوس أفراد الأمة، فيعملون ويجتهدون، وهم في ذلك متنافسون. فيظهر في الأمة أناس ينفعونها، ويرفعون وطنها، ويكونون عوناً لها على أية نازلة أو مُلِمَّة.

الامتحان هو الذي يرفع درجة الفقير العالم، ويحطّ من شأن الغنيّ الجاهل، ويعطي كل إنسان حقّه، فلا تُسند المناصب إلى غير الأكفاء ولا تعطى للجهلاء، وذلك الأمر الذي وراءه كل خير وسعادة للأمة وللبلاد، وبه تَرْقى وتتقدم، فإنّ الحاكم، إذا كان عالماً عارفاً، حكم بالعدل والإنصاف، وابتعد عن الجور والإجحاف، والمعلِّم، إذا كان كفؤاً، رَبَّى شباباً ناهضاً، هم لخير البلاد وسعادتها، وكذلك الجندي، والطبيب، والمهندس، وغيرهم.

٨٧- الكاغد (الورق)

كانت الأمم في الأزمان الخالية، والعصور الماضية، تلاقي صعوبات جمَّة، ومشقات كثيرة إذا أرادت تقييد علم، أو حفظ تاريخ، أو مخاطبة بعيد. فقد كانت تستعمل لذلك جلد الحيوان وعظمه، والقحاف، والعسب[1] وشظايا الحجارة، وإن هذا لا يقوم بالمقصود، ولا يفي بالغرض المطلوب،

(١) العسب: ما جُرد من النخل المستقيم ليكتب عليه، وورد في السيرة النبوية أن المسجد النبوي في المدينة المنورة لمّا بُني أول مرة سُقف بعُسب النخيل.

من تدوين العلوم والمعارف، وتقييد الأخبار، والأشعار، والكتب، والأسفار، وتواريخ الغابرين، وآثار السالفين.

ولقد كان العرب في جاهليتهم، يعتمدون على ذاكرتهم، ويتوكَّلون على حافظتهم في صيانة علومهم ومعارفهم، وأشعارهم، وأنسابهم، فكثرت الرواية والتلقّي، وصارت العلوم تؤخذ عن العلماء بالمشافهة دون الكتاب، فضاعت علوم، وذهبت معارف، واندثرت آثار كثير ممن أدركهم الفناء، فماتت علومهم بموتهم، ومُحيت آثارهم من بعدهم. فلما جاء الإسلام، والخطباء، والعلماء، والشعراء؛ اضطروا إلى شيء يدوِّنون فيه أفكارهم، وأخبارهم، وعلومهم، وأشعارهم، فأدخلوا صناعة الكاغد في ممالكهم، وكانت قبل ذلك شائعة في بلاد الصين، ومن نظر إلى زمن المأمون، علم ما للكاغد من الفوائد الجليلة التي عادت على الإسلام والمسلمين والعلم وأهله.

ولما انتقلت صناعته إلى أوروبا، دخله التحسين، وكثرت أنواعه، وتعدَّدت أصنافه، وأصبح غير قاصر على أن تقيد فيه العلوم والأخبار، وتكتب فيه التواريخ والأشعار، بل في كثير من المصنوعات، وأفاد في تحسينها، وجمالها، واستعمله الإنسان في كثير من الأشياء كلفّ البضائع، وتزيين المنازل والحوانيت، وعمل الصناديق المختلفة الأشكال والمقدار، لحفظ المصنوعات النفيسة، وصيانة البضائع الجليلة، وتجليد الكتب، والنقش، والكتابة، والتصوير، إلى غير ذلك من فوائده التي لا تحصى، ومزاياه العديدة التي لا تستقصى.

٨٨- المطابع

كانت العلوم في الأزمان الغابرة، والعصور الخالية، قبل ظهور المطابع، وطلوع نجمها، بعيدة المطلب، صعبة المنال، لايمكن لغنيّ فضلاً عن فقير أن يحوزها إلا بعد تجشّم الأسفار، وصرف الدرهم والدينار.

فلمّا مَنَّ الله على عباده بظهور المطابع، واختراعها، أصبح نيل العلم سهلاً هيناً، فاستوى الغنيّ والفقير، والعظيم والحقير، في اقتناء الكتب، وانتشرت العلوم والمعارف، وظهرت الأفكار والآراء، ونبغ النابغون، وسبق

السابقون، وتقدَّم الفاضلون، وبانت بلاغة البلغاء، وفصاحة الفصحاء، فاتسعت دائرة العرفان، وراجت سوق العلم، وأعزّ أهله، وعظمت أنصاره، ووُضعت الكتب، وأُلِّفت المؤلّفات، ونُقلت من لغة إلى لغة، ومن لسان إلى لسان، وبزغت أنوار الصحف اليومية، والمجلات العلمية، والصناعية، والسياسية، والدينية، فاستضاء العالم بنورها، واستنار بضوئها، وسهل على الناس تبادل الأفكار، وتناوب الآراء مع السرعة الزائدة والزمن اليسير. وإن لا نرى أمة من الأمم غنية عن المطابع غير مفتقرة إليها، بل كل الأمم الآن تنتفع بها، وتستفيد بواسطتها. فعليها مدار الدواوين، وبها إنجاز الأعمال وتمام الأمور. وإنها لمختلفة الأشكال عديدة الأنواع، وهي على اختلاف أشكالها، وتباين أنواعها، تخرج للناس المئات من المؤلفات النفيسة، والآلاف من الكتب المفيدة في أيسر زمن وأقل كلفة.

ولقد أصبح الكتاب المطبوع، يباهي بحسن منظره اللؤلؤ العظيم والعقد النضيد. ومع ظهوره في مظاهر عديدة حازت كلها من الرفعة أعلاها، ومن المكانة أسماها.

ترى الكتاب المطبوع، فتميل إليه نفسك، ويتمتع به نظرك لحسن تنسيقه، وترتيبه، ورونقه، وجماله. فإذا قرأت فيه، قرأت بنفس مرتاحة، وبال مطمئن، وعين قريرة، وميل طبيعي، وشوق غريزي، وإذا نظرت إلى المؤلف المكتوب باليد، رأيت غالباً ماتشمئز منه النفس، ولا يقبله الطبع، ولو حوى بين دفتيه حكمة الحكماء، وبلاغة البلغاء، وفصاحة الفصحاء، وزيادة على ذلك ما يقع فيه من التصحيف، والتحريف، والتغيير، والتبديل، مما يضيق له صدر الحليم، ويأنفه الذوق السليم.

فما أجلّ خدمة الطابع، ومأأكمل فائدتها، فهي من نعم الله العظمى، ومننه الكبرى. فله الحمد والشكر على آلائه التي لا تعد ولا تحصى.

٨٩- الكهرباء

إن من أجل العوامل، وأعظم الوسائل التي أكسبت الإنسان خيراً، وسعادة، ورقياً، وحضارة الكهرباء تلك القوة التي كانت كامنة، فأظهرتها

أفكار المخترعين، وعقول المفكّرين. فأفادت العالم بأسره، زينة وجمالاً، ورونقاً وكمالاً، وقدَّمَتْ إليه غير ذلك منافع من أجلِّ الخدمات، وأحسن العطايا، فهي تدير المعامل الكبرى والمصانع العظمى، في أيسر زمن، وأوجز وقت، وقليل كلفة، مع السرعة الزائدة، والقوة الشديدة. فأخرجت للناس المصنوعات على اختلاف أشكالها، وتباين أنواعها زاهرة، بديعة الصنع، جميلة الإتقان.

وإننا لا ننسى خدمتها للأطباء الذين اتخذوا منها وسيلة للرأفة بالضعفاء، فانتفعوا بحرارتها في إزاحة أمراض كثيرة، وبضوئها في كشف ماسترته كثافة الأجسام، فأزالوا عن المرضى عناء الآلام وتعب الحياة. كما لا يغيب عنا استعمالها في قطع الأشجار الضخمة، والأخشاب العظيمة، وقضبان الحديد، مما أراح الإنسان والحيوان، وخفَّف عنهما مؤونة الأشغال، ونصب الأعمال، وصرف الأزمان والأموال.

ومن أعظم آثارها نقل الأخبار من بلد إلى بلد، ومن قارة إلى قارّة في وقت وجيز، وزمن قصير، فأصبح الشرقيّ، في شرقه، يسمع كلام الغربي في غربه، وسهل على سكان الأرض كلها أن يخاطب بعضهم بعضاً من غير مفارقة أوطانهم، ومبارحة بلادهم، في ساعات معدودات، ودقائق معلومات، فكأنّ الناس كلهم أسرة واحدة في بيت واحد. ولقد محا ضوء الكهرباء آية الليل، ونسخ معالمه في المدن العظيمة.

٩٠- الصحف (الجرائد)

الصحف هي لسان الأمة المعبر عن أغراضها وآرائها وأفكارها، فهي عنوان رقيها، ودليل حضارتها، تنبئ عن أحوال البلاد الداخلية وحوادثها المحلية، وبين أنهارها منبر عام للخطباء، والعلماء، والحكماء، والأدباء، والشعراء، وأهل الخبرة، والسياسة، والدربة، والكياسة. فهي روضة النفس، ونزهة الطرْف، والناصح الأمين، والمرشد الحكيم، والمبشر، والمنذر، والسائح الذي يطوف البلاد شرقاً وغرباً، فيعلم الناس بالأخبار، ومانقلوا لهم قدماً، ويوقفهم على أفكار غيرهم، وما أتعبوا لهم نفساً. وإنها عون الأمة في

الملمات وعضدها في النازلات، وبها يستغيث المستغيثون ويطلب النصفة المغبونون، ويعرف العاملون والعاطلون، والمجدون والخاملون، وفيها تنشر الحكومة أوامرها وتعلن مطالبها، وتدعو إلى ما ترى وتريد، ويقف الإنسان بواسطتها على حوادث الأرض كلها وهو في بلده، فيعرف مايجري بين الدول من عهود جديدة، وشروط حديثة، ونزاع وخصام، وجدال وقتال، الخ.

٩١- الطرق الحديثة

كان الناس فيما مضى من الأزمان، يلاقون أنواع الصعوبات، ويرون صنوف الشدائد، إذا أرادوا الانتقال من بلد إلى بلد، والسفر من جهة إلى أخرى. فكانوا يصرفون الأموال، وينفقون الأزمان، ويضعفون من قوتهم وقوة الحيوان. لا أمن ولا راحة ولا اطمئنان. إن ساروا في البر فيا ويلهم من الأرض، وضلال المسلك، وفتك الفاتك، وغصب الغاصب، فيكونون هم وأولادهم عرضة للضياع والهلاك، وإن ساروا في البحر فيا ويحهم من موج يغشاه موج، فيطوح بالسفينة كيف شاء، ويقلبها كيف يريد، فتارة يرون الموت وأخرى يرجون الحياة. وهم مع ذلك يخشون فتك الفاتكين، ويخافون صولة الغاصبين، وإن صعوبات كهذه تقف بالإنسان دون أن يخرج من بلده أو يرتحل عن وطنه. فكان الناس في انقطاع و افتراق، وتباعد واغتراب. لا تعارف، ولا تآلف، ولا تبادل، ولا تعامل.

فلمّا مُدَّت قضبان الحديد في البلاد، وتفرعت فروعها في الجهات، سهل الوصول، وعمّ الأمن، وازداد الرخاء، وكمل الهناء، فارتبطت البلاد وقربت المسافات وذللت الصعوبات وانتشرت التجارة وارتقت الصناعة، ووجد التعارف والتآلف والتحابب والتحالف والتبادل والتعامل، وصارت المصنوعات والمزروعات تنقل من البلاد الغربية إلى البلاد الشرقية، وما كنا لنبلغ ذلك إلا بشق الأنفس، وصرف الأموال والأزمان، وقوتنا قوة الحيوان فزال ذلك كله، وبدل الشقاء هناء، والتعب راحة، وتنافس في الصناعة المتنافسون، وتسابق في الزراعة المتسابقون، وتبارى في التجارة المتاجرون.

٩٢- الثروة في يد العاملين

أقام جماعة بجزيرة طاب هواؤها وعذب ماؤها، فشيدوا القصور

الشامخة، واتخذوا البساتين الناضرة، مترفِّعين عن العمل، راكنين إلى الكسل. وكان معهم قوم من الفقراء يحرثون أرضهم، ويسيمون دوابهم، ولقلة أجورهم، وسوء معاملتهم، ضاقت صدورهم، فاجتمعوا يوماً، وقرروا الرحيل، عن هذه الجزيرة إلى غيرها.

فخرجوا إلى أرض خالية، فكدوا بها، وأحيوا أرضها حتى كثر خيرها، فحملوا ما زاد على حاجتهم إلى الجزيرة، ليتجروا به، فإذا أهلها في بؤس من العيش، قد أمحلت أرضهم، وتهدمت قصورهم. فعلموا أن السعادة للعاملين، وأن الشقاء حليف العاطلين: [البسيط]

لـيـسَ الـحـيـاةُ بـأَنْـفـاسٍ تُـرَدِّدُهـا ... إنَّ الـحـيـاةَ حـيـاةُ الـفِـكْـرِ والـعَـمَـلِ

٩٣- الحديد

الحديد أكثر المعادن نفعاً، وأشدها بأساً، وأعظمها قوة، له منافع كثيرة، وقواعد عديدة. قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾[١].

ولا ريب في ذلك، فإن عليه تؤسَّس الدور وتبنى القصور، وترفَع القناطر فوق الأنهار، وتقام الحواجز في عرضها. ومنه تكون الأسلحة والدروع والآلات الحربية، التي يذود بها الإنسان عن نفسه، ويمنع حوزته، وتحفظ الممالك، وتقيها عاديات الهوالك؛ والعدد البخارية التي تدير المعامل الكبرى والمصانع العظمى، وتطحن الحبوب، وترفع المياه، وتحرث الأرض.

ومنه المدية[٢] والمبراة والمقص والمنشار والقفل والمسمار، وأغلب آلات الصناع والعمال التي لولاها ما تم لهم عمل، ولا ارتقت صناعة، كما أن منه السفن البخارية التي تشق البحار، وتجوب أطرافها، وتلاطم أمواجها، فتحمل الإنسان والبضائع من بلد إلى بلد، ومن مملكة إلى أخرى. وكذا القطر الحديدية التي أزالت عن المسافر كل عناء، ورفعت عن الحيوان كل شقاء، وارتبطت بها البلاد، واتصلت الممالك، ومنه عجلات النقل على

---

(١) سورة الحديد الآية: ٢٥ .

(٢) المدية: السكين الكبيرة.

اختلاف أشكالها، وتباين أنواعها، والأسلاك البرقية التي تنقل الأخبار، وتنشر الحوادث في زمن وجيز، ووقت قصير إلى غير ذلك مما أخذ بيد الإنسان إلى ذروة الحضارة، وأكسبه الخير والسعادة، ولا تقوم الحياة إلا به، ولا تستقيم المعيشة إلا بواسطته.

٩٤- دور الكتب

إن مما يدل على تمدْين الأمة وحضارتها، وتقدمها ورقيها، أن تُنشِئ دور الكتب في أكابر مدنها ليقصدها طلاب العلم، وينتفع منها أهل الأدب، وذلك لأن أفراد الأمة فيهم الفقير العاقل، والمعدم الفطن، والغني الذي إن سهل عليه اقتناء بعض الكتب، تعاصى عليه البعض الآخر، على أن من الكتب ما لا يسهل نشره بين أفراد الأمة لكبر حجمه، فكان من الحكمة أن تُبنى دور الكتب لتجمع فيها مؤلَّفات الحكماء والعلماء والشعراء والأدباء الحاضرين منهم والقدماء، ويكون ذلك مباحاً لجميع الأفراد، ينتفعون به، لافرق بين الغني والفقير، والعظيم والصغير، حتى يسهل عليهم اقتناء الفنون والآداب والعلوم والمعارف.

ولقد كان بالإسكندرية، زمن البطالسة، دار كتب عظيمة، احتوت على أنفس الكتب، وأحسن الملفات. وأول من قام بإنشاء دور الكتب من أهل الإسلام العباسيون، فقد أنشؤوا ببغداد داراً جمعت كثيراً من كتب الحكماء والفلاسفة والعلماء وسموها بيت الحكمة، وأنشأ الفاطميون بالقاهرة خزانة الكتب. ومكاتب الأندلس كانت مشحونة بالكتب القيِّمة مملوءة بالمؤلفات التي تكسب الإنسان حكمة، وتُورثه عقلاً وفضلاً ودراية وعلماً. والآن بالقاهرة دار الكتب فيها من الكتب أنفسها، ومن المؤلفات أنفعها، ويختلف إليها الناس للإفادة والاستفادة، والمذاكرة والاطلاع، مما أفاد فائدة تامة.

٩٥- الشركات

إن للشركة، على اختلافها وتباين أنواعها، تأثيراً حسناً، وفعلاً طيباً، وعملاً جليلاً في ارتقاء الأمة وتقدمها وسعادتها وثرائها وخصوصاً الذين قاموا بإنشائها،

واعتنوا بتأسيسها، فإنها تبعث فيهم النشاط وحب العمل، والميل إلى التعاون والمساعدة، وتزيد من أموالهم وثروتهم، وبديهي أن الفرد الواحد لا يقوم بما تقوم به الجماعة من بذل الأموال وسرعة الحركة، والنشاط والاجتهاد وحسن المراقبة، والملاحظة، والالتفات، والانتباه، فمن الضروري أن يستعين بغيره، ويتقوى به لتجتمع منهما قوة تعود عليهما بالنفع العميم، والخير الجزيل، لذلك وجدت الشركات التي لولاها ماظهرت الأعمال العظيمة والأفعال الجسيمة، والأمور الكبيرة التي تحتاج إلى المال، والوقت، والعقل والفكر كمد السكك الحديدية وتكوين الأراضي الزراعية واستخراج المواد المعدنية، وحفر الترع والأنهار، والسير في البحار، وإدارة المعامل الكبرى، والمصانع العظمى، إلى غير ذلك مما لا يكون لفرد أن يقوم به، أو يقدر على عمله.

٩٦- المياه

إن المياه من العناصر الضرورية التي لا يحيا الإنسان إلا بها، ولا يعيش إلا بواسطتها، وهي على اختلاف أنواعها، وتباين أصنافها، مفيدة للإنسان والحيوان، والشجر والنبات، يرتوي منها الإنسان، ويشرب الحيوان، ويُسْقَى الشجر والنبات، وببخارها يعتدل الجو، وتلطَّف الحرارة، ويُنقَّى الهواء، وتطهَّر المياه، وتسير فوقها السفن البخارية والشراعية، وتدار بها المعامل الصناعية إن كانت ذات تيار عظيم.

ولا يغيب عنا تلك المخلوقات العديدة، والخلائق المختلفة التي تعيش داخل البحار، وفي بطن الأنهار، وما نأكله من السمك، ونستخرجه من اللؤلؤ والمرجان، والملح والأصداف.

نحن محتاجون إلى المياه في الأكل، والشرب، والمسكن، والملبس، والتنظيف، والتطهير. وفي أغلب الأمور: إذا أردنا البناء، احتجنا إلى الماء، وإن طلبنا الغذاء، وجدناه في الماء، وإن قصدنا نقي الهواء رأيناه عند الماء، وبه نطفئ الحرائق، ونصد به عاديات الزوابع، ونخفّف به عنا حرارة الصيف، وجماع هذا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾[1].

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٠ .

٩٧- المهدي والواشي

دخل رجل على المهدي في أمر، فتبين له أنه يريد أن يسعى عنده في ضرر غيره، فقال له المهدي: اعلم يا هذا بأن الساعي ليس بأعظم عورة، ولا أقبح حالاً ممن قبل سعايته، ولا تخلو من أن تكون حاسد نعمة، فلا نشفي غليلك، أو عدوّاً، فلا نعاقب لك عدوك، ولا ينصح لنا ناصح إلا بما فيه لله رضا، وللمسلمين صلاح، فالظاهر لنا والباطن ليس لنا، ومن استتر عنا لم نكشفه، ومن بادأنا طلبنا توبته، ومن أخطأ أقلنا عثرته، فإني أرى التأديب بالصفح أبلغ منه بالعقوبة، والسلامة مع العفو أكثر منها مع المعاجلة، والقلوب لا تبقى لوال لا ينعطف إذا استعطف، ولا يعفو إذا قدر، ولا يغفر إذا ظفر، ولا يرحم إذا استرحم.

٩٨- الحرارة

إن الحرارة عنصر من العناصر التي لا يحيا الإنسان إلا بها، ولا يعيش الحيوان إلا بوجودها، ولا ينمو النبات إلا بواسطتها.

وإنها لأنواع وأصناف، فمنها حرارة الشمس وهي تلك الحرارة التي خدمت الإنسان أجل الخدمات، وأفادته أحسن الفوائد، فإنها تبخِّر مياه البحار، فيعلو ذلك البخار، وينعقد سحباً في السماء، فيحملها الهواء حتى تصادف برودة تحوِّلها إلى أمطار تنهمل على الأراضي الجدباء فتصبح روضة خضراء، فتبارك الفعال لما يشاء، كما أنها تلطف برودة الجو، وتمنع رطوبة الأرض، وتجفِّف الثياب وغيرها وتنضج الثمار، وتنمِّي الإنسان والحيوان والنبات، وغير ذلك من الفوائد والمنافع.

أما حرارة الكهرباء، فقد استعملها الأطباء في محو كثير من الأدواء، وسخَّرها الصناع في أمور كثيرة كقطع الأشجار، وكَسْر القضبان، والاستضاءة بجميل الأنوار، إلى غير ذلك مما يحتاج إليه الإنسان، ويستفيد منه.

وأما حرارة الفحم والخشب، فقد عادت إلينا بالنفع العظيم والخير العميم، فإنها تُسيِّر القُطُرَ الحديدية، والسفن البخارية، وتدير المعامل الصناعية، والآلات الزراعية التي تروي الأرض، وتطحن القمح، وتنقِّي القطن، وغير الزراعية كالتي ترصف الطرقات، وتجّر الأثقال، وتجمد المياه.

وبالجملة فينابيع الحرارة ثلاثة: الينابيع الطبيعية، وهي الأشعة الشمسية والحرارة الأرضية والكهربائية. والينابيع الكيماوية، وهي اتحاد الأجزاء ببعضها. والينابيع الميكانيكية، وهي الاحتكاك والضغط والقرع.

٩٩- الضوء

الضوء حركة أثيرية، وهو على اختلاف أنواعه، وتباين أصنافه، مفيد للإنسان الذي يحتاج إليه كل الاحتياج.

فبينما يكون الظلام منتشراً، والجو معتماً، إذ ظهرت الشمس، فمحت آية الليل، وأزالت ظلام الجو بنورها الساطع، وضوئها اللامع، فتنبعث الناس من مراقدها، وتروح إلى أعمالها، فيكتب الكاتب، ويحسب المحاسب، ويشتغل الصانع، ويتجر التاجر، وكلهم مطمئن البال مسرور النفس من ذلك النور الطبيعي، وهذا الكوكب المنير، الذي أنعم الله على عباده، فأفادهم فائدة كبرى، وعاد عليهم بالنفع العميم.

ولما كان الإنسان لا يستغني عن الأعمال ليلاً، أنعم الله عليه بتلك النجوم الزاهرة، والقمر المتلألئ، ليهتدي الساري والرائح والغادي، فلولا الضوء ما كتب كاتب، ولا راح رائح، ولا عمل عامل، بل كنّا نعيش في ظلام حالك، وليل مظلم. وبَعُدَ أن نعيش على تلك الحال، فما أَجَلَّ نعمة الضوء!

ظهر الضوء الطبيعي، وهو ضوء الشمس والقمر والنجوم، فانتفع به الإنسان في أموره وشؤونه. ولما هداه الله للضوء الصناعي، استعمله حين تغيب الشمس، ويخفى ضوء القمر والنجوم.

١٠٠- الأشجار

إن الأشجار من أنعُم الله العظمى، ومننه الكبرى، التي عادت على الإنسان بالنفع العظيم، والخير الجزيل، يبذر الواحد منا بذرة ضئيلة ضعيفة، صغيرة حقيرة، ثم يَتَعَهَّدُها حيناً من الدهر، فلا يلبث حتى يراها شجرة ملتفَّة الأغصان، مورقة الأفنان، ينتفع من ثمارها إن كانت من ذوات الثمار،

ويستفيد من أزهارها إن كانت من ذوات الأزهار، فيستخرج الروائح الزكيَّة والمواد العطرية، التي تكسب النفس سروراً وانشراحاً، ثم يجد فيها الأدوية المفيدة لكثير من الأمراض، النافعة في أغلب الأدواء، كما أنها تنقِّي الهواء، ويستظلّ بها الإنسان، ويتغذى بورقها الحيوان، ويأوي إليها الطير، فيتخذ منها سكناً، ومن أثمارها غذاء. وإنا لنتخذ منها، زيادة على ذلك، الأخشاب التي نصنع منها السفن البخارية، والمراكب الشراعية، والنوافذ، والأبواب، وسقف المنازل وما يقينا عادية اللصوص وطوارئ الجو. كما أننا نصنع منها قماطر الكتب، ومقاعد الجلوس، وموائد الأكل، وسلاليم الصعود، ووقايات من رطوبة الأرض، وأغلب الآلات والأدوات، وننتفع بما كمن فيها من النار.

١٠١- تأدية الواجب

أغلب الناس يحبون العمل حبّاً جمّاً، ويكرهون الكسل كرهاً شديداً، ويعملون و يجتهدون ويدأبون بالليل والنهار لا يفترون، يفضلون الشغل، ولو أدى إلى الموت، على الحياة التعسة الدنيئة التي لا يرضى بها عزيز، ولا يقيم عليها إلا كل ذليل حقير، أولئك الناس هم الذين أدّوا ما وجب عليهم، وقاموا بعمل ما طلب منهم، فاكتسبوا سروراً لا يعدله سرور، لأن أتعب الأعمال مفعم باللذة النفسية، وبه حياة الإنسان الأبدية.

كل واحد في أيّ عمل لا يقوم بما وجب عليه، ولايعمل ما طُلب منه، وهو ملزم به، فقد عَرَّضَ نفسه للمذلَّة، وسعى وراء ما يُكسبه الضرر والامتهان، لأنه يصبح مُبْغَضاً عند رؤسائه، مكروهاً بين رفقائه، بل ربما أدى ذلك إلى عزله عن عمله، فتضيق عليه الأرض بما رحبت، وتُوصَد في وجهه أبواب الرزق.

أما من أدى واجبه، فإنه يكون حرّاً خالصاً، لا سلطة لأحد عليه من رئيس ومرؤوس، وينال سروراً يعادل أضعاف التعب الذي صادفه في طريق أداء الواجب، ذلك هو الذي أفاد أمته وقومه، فكان عضواً عاملاً على نجاح بلاده، ساعياً في رفعة أمته.

إن الإنسان، إذا تهاون بواجباته، وتثاقل عن عمل ما يجب عليه، تراكمت عليه الأعمال، وأصبحت عبئاً ثقيلاً على كاهله، وانفتح أمامه باب اليأس، فيعيش عيشة تعسة، ويحيا حياة الموت خير منها، فلا يفيد ويستفيد، ولا يعمل عملاً يوجب له الشكر والاحترام، فأداء الواجب مرتبط بحياة الإنسان السعيدة التي يعيش بها مسروراً، قرير العين، مثلوج الفؤاد، مرتاح الخاطر، مطمئنّ البال.

وإن الأُمَّة، إذا قامت بواجباتها، وأدَّت ما وجب عليها، يعزّ شأنها، ويقوى سلطانها، وتعيش في هناء دائم، ونعيم مقيم، والله لا يضيع أجر العاملين.

١٠٢- إتقان العمل

إن الناس، على اختلاف مشاربهم، وتباين آرائهم، يحبّون العمل المتقن، والصنع الحسن، لأن الإتقان يُكسب العامل رفعة وعلواً وذِكْراً وقدراً، وإنا لنرى بعض المصنوعات فاق غيره وتقدم عليه في الأسواق، ونال رضا الناس وحبّهم إياه، ولم يكسبه ذلك إلا سلوك سبيل الإتقان في عمله، والجودة في صنعه، حتى ظهر بمظهر القبول، فَيُسَرّ منه من ينظره، وينشرح له صدر من يبصره، ويسعى في اقتنائه من يراه.

إن الإتقان في العمل يقدم صاحبه، ويجعله محبوباً بين الناس، ويكسبه السرف الرفيع والمجد الأثيل. فالصانع والتاجر، والمعلّم والعالم، والزارع وغيره، إذا أتقنوا عملهم، وأحسنوا صنعهم، كانوا من الساعين في خير أمتهم، العاملين على تقدّم بلادهم، الحافظين وطنهم من حادثات الدهر، وكوارث الأيام.

الإتقان في العمل يأخذ بيد صاحبه، ويقدّمه على إخوانه، ويرفعه على أقرانه، ويظهر أمام قومه بمظهر الرجل العارف، والإنسان الكامل، فيحظى بالدرجة الرفيعة، والمنزلة الشريفة، وينال محبة الرؤساء والكبراء، والإخوان والأصدقاء، وجميع الأمة. و ما هو إلا عمل أتقنه، وصنع أحسنه.

الناس لا ينظرون إلى مدة العمل، وإنما ينظرون إلى جودته، فعمل مفيد في وقت طويل، خير من عمل لا يفيد و لا يُغني في زمن قصير.

فليس المهمل في عملْه، والمتعجِّل في شغله، كالذي أتقنه وحسنه، وإنما هو ساع في ضرره، عامل على تأخره، وتأخر بلاده وأمته، وربما نشأ عن العجلة الخطأ، فيذهب عليه العمل سدى، ويضيع تعبه بلا فائدة، ولا ينال غير الندم، وشقاء البدن، وذلك جزاء المهملين.

١٠٣- الإنسان

لقد خلق الله الإنسان في أحسن تقويم، باعتداله وتسوية[١] أعضائه، وخلق كل حيوان منكباً[٢] على وجهه، وخلقه سوياً[٣]، وجعل له لساناً ينطق به، ويداً وأصابع يقبض بها الأشياء، ويصرفها كيف يشاء ويريد، وجعل له التمييز بين الأشياء الضارة والنافعة، ومنحه[٤] العقل الذي به الإدراك.

الإنسان أعدل الحيوانات مزاجاً، وأكملها أفعالاً، وألطفها حساً، وأنفذها رأياً، فهو كالملك القاهر لسائر رعيته، وذلك بما وهب الله تعالى له من العقل الذي به تَميَّزَ على كل الحيوانات، فهو في الحقيقة ملك العالم.

والإنسان - وإن خلق ضعيفاً - ليس له من الصوف أو الشعر مايقيه[٥] الحر والبرد، و لا من المخلب[٦] وحادّ الأظفار ما يتصيَّد به غيره من الحيوانات، أو يدافع به عن نفسه. فقد منحه الله العقل الذي به سَخَّر[٧] له الأنعام، وهداه إلى استعمال المعادن في حاجاته، ونسج الأصواف والأوبار[٨] والشعور لملابسه وزينته، وحرث الأرض لاستنبات قوته وقوتِ ما سخَّرَ له من بهيمة الأنعام. ينزل الطير من السماء، وينقل الأثقال من مكان إلى مكان، ويَشيد المباني والقصور الفاخرة لسكناه. وتراه يطير في الجو بغير أجنحة. ولكن بما هداه إليه عقله من البالون الذي يقلّه في الجوّ، فيقطع به البحار والجبال والوهاد.

---

(١) اعتدال.
(٢) مائلاً.
(٣) مستوياً.
(٤) أعطاه.
(٥) مايحفظه.
(٦) هو للطائر والسبع كالظفر.
(٧) ذلل.
(٨) شعر الإبل.

١٠٤- الاعتماد على النفس

هو أن يباشر الإنسان أعماله بنفسه، وينظر في أحواله وحده، فلا يحتاج إلى معين يعينه، أو مشارك يشاركه، مالم تكن تلك الأعمال وهذه الأحوال، مما تجب فيه المساعدة والإعانة. فإن الإنسان محتاج إلى التعاون في أشياء كثيرة، لا تبعث فيه خلق التواكل ولا تجعله من أهل الكسل إن اعتمد فيها على غيره. فالاعتماد على النفس أصل النجاح، وأساس الرقي، يدعو صاحبه إلى الجد، ويسوقه إلى النشاط، ويقتل من نفسه خلق التواكل الذي أخَّر كثيراً من الناس، ووضع من قدرهم، وحطَّ من شأنهم. فواجب على المرء ألا يُعَوِّلَ على غيره، وأن يعتمد على نفسه: [البسيط]

فـإنَّـمـا رَجُـلُ الـدنـيـا وواحِـدُهـا مَنْ لا يُعَوِّلُ في الدُّنيا على رَجُلِ

إذا وجد في الأمة أفراد يعتمدون على أنفسهم، ولا يحتاجون إلى مشاركة غيرهم، تقدَّموا، وتقدمت بلادهم، وارتقوا، وارتقت أوطانهم، وعزّوا، وعزت أمتهم.

١٠٥- العمل

إن العمل من أسباب الكمال، وهو طريق إلى بلوغ الآمال، وسبيل إلى كل خير ونجاح. فقد قيل: [الكامل]

الـجِـدُّ يُـدْنـي كُـلَّ أَمْـرٍ شـاسِـعٍ والـجِـدُّ يَـفْـتَـحُ كُـلَّ بـابٍ مُـغْـلَـقِ

وإن الأرض الطيِّبة بغير العمل لا تنبت شيئاً، والأرض الجدباء بالعمل تُثمر وتُنبت، فمن حاول أن ينال العلا من غير كد وعمل، فهو كمن حاول ارتقاء السماء، واصطياد العنقاء[1]: [الطويل]

وما طالِبُ الحاجاتِ في كلِّ وجْهَةٍ مـنَ الـنـاسِ إلاّ مَـنْ أَجَـدَّ وشَـمَّـرا

فالعاقل مَنْ قابل العمل بكل صبر، وثبات، وعزم، وحزم، ونزاهة، واستقامة، وصدق، وأمانة. ذلك هو الذي ينال المحامد، ويكتسب الفضائل،

---

(١) العنقاء: طائر أسطوري خرافي، يقال: إنه يخرج كل خمسمئة عام ويعيد إحراق نفسه من جديد لتظهر عنقاء جديدة.

ويحيا حياة سعيدة، ويعيش عيشة مرضية، أما من خاف من الأعمال، وتقهقر أمامها، فإنه يعيش ذليلاً مهيناً، حقيراً وضيعاً، ويكون عبئاً ثقيلاً، وعضواً أشلّ، مثل هذا، لا خير له في الحياة: [الوافر]

وما لِلْمَرْءِ خَيْرٌ في حَياةٍ إذا ما عُدَّ مِنْ سَقَطِ المتاعِ

وإن الفقر والنسب الوضيع لا يصدّان العامل المجتهد عن نيل المراتب العالية، والدرجات السامية. كما إن الغنى والنسب الشريف لا يفيدان الخامل الكسول. فإنَّ كثيراً من الأغنياء الأشراف انحطّوا بعد الرفعة، وذلّوا بعد العزّة، لميلهم إلى الكسل، وإخلادهم إلى الراحة. وكثير من الفقراء ذوي النسب الوضيع، والأصل الحقير، نالوا العزة بعد الذل، والغنى بعد الفقر بجدهم و اجتهادهم، وسعيهم ونشاطهم. فمن جَدَّ وجد، ومن تكاسل ندم.

١٠٦- الأمل

الأمل: هو ذلك القائد الذي قاد الملوك إلى مناصبها، وأجلس الأمراء في مجالسها، وأظهر العلماء والحكماء والعظماء والكبراء، وفسح في العيش لمن كاثرته الهموم، وتوالت عليه الأحزان: [البسيط]:

أُعَلِّلُ النَّفْسَ بالآمال أَرْقُبُها ما أَضْيَقَ العَيْشَ لولا فُسْحَةُ الأَمَلِ

فهو مؤثر قويّ يبعث في الإنسان حبّ العمل، ويسوقه إلى الجد والاجتهاد حتى يصل إلى غرضه، ويحصل على مطلبه، فيكتسب رفعة وشرفاً ومجداً، وثناء وحمداً، ذلك إن لم يخرج عن حدّ الاعتدال، أو يتعلق بشيء دنيء. فإن كان الأول، فإن صاحبه مهما جد وسعى غير واصل إلى مطلوبه. وإن كان الثاني، فإن صاحبه لو وصل إلى غرضه، كانت عاقبته سيئة ونتيجته الوبال والخسران والخزي الكبير.

وهذا النوع من الأمل هو الأمل الكاذب والأمل الدنيء.

كثير من الناس تعلقت آمالهم بالأمور العظيمة الممكنة، فوجدوا من أنفسهم همة ونشاطاً يساعدانهم على نيل مطالبهم، وإدراك رغائبهم، فنالوا الرفعة والمجد الأثيل، ذلك هو الأمل الصادق النافع. ومن الناس من طلبوا المستحيل، أو الأمر الحقير، فباؤوا بالخسران الكبير، وما نالوا غير التعب

الشديد وغضب الله والناس، وذلك جزاء المعتدين، وتلك عاقبة الآمال الكاذبة.

فالأمل الصادق هو الذي يجب أن يعتمد عليه الشخص، ويجعله له إماماً ونوراً، فهو آية السعادة والهناء وعلامة كل خير وسرور، وهو الذي جعل الإنسان رجلاً يكافح النوائب، ويقابل المصائب بجأش ثابت، وقلب قوي ينزل به من وهدة إلى أخرى ومن صعب إلى صعب، فلا تسأم نفسه أو تمل. وكيف تسأم أو تمل، وأمامها الأمل الذي هزم الكوارث وخذل الصعاب، حتى عاد صاحبه ظافراً غانماً؟

الأمل هو الذي قوّى عضد الزارع والصانع، ورفع من نفس المتعلم والعالم، والجندي الصغير والأمير الكبير، حتى أدرك كل غايته، ونال مطالبه. فما أعظمه نافعاً، وما أفضله صاحباً وقريناً بعث للناس العلماء والحكماء، والملوك، والأمراء، وكشف عن الأفئدة ظلمة الجهل، وأضاءها بنور العلم، وقاد الناس إلى ما فيه خير البلاد والعباد.

١٠٧- مقابلة الإساءة بالإحسان

يحكى أن زبيدة العباسية[١] كانت جالسة ذات يوم في قصرها، فدخلت عليها حاجبتها تقول: إن امرأة جميلة عليها ثياب بالية[٢] تريد الدخول عليك، وتقول إنها تعرفك من قديم. فأنكرت زبيدة ذلك، فطلب من حضر من جواريها الإذن لها، فأذنت، فدخلت امرأة معتدلة الخلقة[٣]، جميلة الصورة عليها رداء مرقَّع[٤]، فجعلت تمشي في استحياء حتى انتهت الى باب المجلس، فسلَّمت، فردت زبيدة عليها السلام، وقالت لها، من أنت؟ قالت: أنا طريدة الزمان، وطريحة الحَدَثان[٥]، ماتت رجالنا، واختلَّت أحوالنا، وجفانا الصديق، وكدنا نلقى على الطريق. فقالت لها زبيدة: انتسبي،

(١) زوجة الرشيد.
(٢) ممزقة.
(٣) مستويتها.
(٤) ثوب به رقع.
(٥) مطروحة الليل والنهار.

فقالت: أنا ربيبة بنت مروان بن محمد[١]، فقالت: لا حيّاكِ الله، ولا سَلَّمَ عليكِ! ثم ذَكَّرَتْها ببعض حوادث منها في زمن عظمتها، فبكت، وقالت: يا ابنة العم، وأيّ شيء أعجبك من الإساءة وقطْع الرحم، حتى تقتدي بي في ذلك؟ ثمَّ انصرفت. فندمت زبيدة على ما حصل منها، وبعثت جواريها إليها، فلم ترجع. فقامت تعدو[٢] خلفها حتى أدركتها في الدهليز، فاعتذرت إليها، فرجعت. ثم أمرت زبيدة جواريها، فأدخَلْنها الحمّام، وأحضرن لها أصنافاً من الثياب، فاختارت منها ما شاءت، وتطيَّبت وأقبلت، فقامت إليها زبيدة، وعانقتها[٣]، ورفعت مجلسها، فلما دخل الخليفة[٤]، قصَّت عليه القصة، فشكرها، وأمرها أن تعدَّ لها مقصورة[٥]، وجواري يخدمنها.

١٠٨- الاقتصاد

لكل مطلوب غاية يشرف بشرفها، ويرتقي بها، كما أنه ينحط بانحطاطها، وإن الاقتصاد مطلوب، وغايته حسنة شريفة راقية جليلة، وهو يكون في المال، والأكل والشرب، واللباس والبناء وكل الأمور. فأما الاقتصاد في المال فوراءه كل كمال، إذ به يجد الإنسان عماداً يعتمد عليه عند الحاجة، ونزول الملمّة، فهو عرضة للمرض، عرضة للكبر، عرضة للفقر، عرضة للعزل، عرضة لكل نائبة. فواجب عليه أن يدَّخر من ماله ما يقيه شرّ المصائب، ويحفظه من عاديات الدهر. على أن وراءه من الواجبات والحقوق ما يجعله عاملاً على ادخار المال لأدائها والقيام بها، فواجب عليه تربية نفسه، وأولاده، وصلة ذويه وأقربائه، ومساعدة الفقراء، وتربية اليتامى، وإعانة الضعفاء، وأهل البؤس والشقاء.

وكيف يؤدي الواجبات من لم يدخر من ماله ما يكفل له القيام بها؟ أم كيف يقوم بهذه الحقوق من أسرف وبذَّر، أو بخل وقتَّر؟ إنه لينهزم أمامها،

---

(١) أحد خلفاء بني أمية.
(٢) تجري بسرعة.
(٣) ضمتها إلى صدرها.
(٤) هارون الرشيد.
(٥) مكاناً.

ويتقهقر منها دون أن يؤدّيها، أو يقوم بواحد منها، ولقد جاءنا من الأنباء أن الأوربيين وبعض الشرقيين، رجالاً ونساء، صغاراً وكباراً، تنافسوا في أداء هذه الواجبات، والقيام بتلك الحقوق، فلم يعنوا بجمع المال للهو واللعب، والتفاخر والتكاثر، بل ادخروه واقتصدوه لتعليم أنفسهم وأولادهم وإنشاء المدارس، ومكافأة العلماء، ومساعدة الفقراء، وإسعاف المصابين، وإقامة الملاجئ، وبناء المستشفيات. وكم رأينا من أناس يوصون بأموالهم التي اقتصدوها، وأعدّوها لأعمال الخير، أن تصرف في هذا الغرض الشريف. غرض رقيّ الأمة وسعادتها بعد موتهم. ومثل هذا، فليكن الاقتصاد في المال. والاقتصاد في الأكل، والشرب، والبناء، واللباس وغيره يكون بالاقتصار على مايسدّ الخَلَّة[1]، ويقضي الحاجة.

١٠٩- الشمس

الشمس: كوكب عظيم يطلع نهاراً من الشرق، فيضيء الدنيا، ويساعد على رؤية جميع الأشياء التي على سطح الأرض، ومتى سقط شعاع الشمس على الزرع ينضجه، ويكسبه ألواناً جميلة، ويتحوَّل به ماء البحر إلى بخار، ويصير مطراً.

ثم يسقط ماء عذباً يجري به ماء الأنهار، ويُسقى به الزرع والحيوان، وينتفع الناس في حوائجهم.

ومن ذلك ماء النيل السعيد الذي يجري في بلادنا، وننتفع به في معيشتنا. وحرارة الشمس تجفِّف الرطوبة الناشئة من وجود المياه في جدران الأماكن، كما أنها تجفِّف الملابس بعد غسلها، ولكنها تضر من يتعرَّض لها كثيراً دون وقاية بمظلة ونحوها، فيحصل له ما يُسمَّى بضربة شمس، وقد تكون هذه الضربة أحياناً مُهلِكة، فيجب الاحتراس منها.

١١٠- الأرض

الأرض التي نعيش عليها تتكوَّن من بحر وبر، فالبرّ ما يعيش فيه الإنسان والحيوان، وينبت فيه النبات والأشجار.

---

(١) الأصل في الخَلَّة: الثقبة الصغيرة، وهي هنا بمعنى: الفقر وسوء الحال والحاجة.

وتُبنى فيه المدن العظيمة وينتفع بصخوره وجباله في البناء والعمارات. أما البحر، فهو الماء الذي تعيش فيه النباتات البحرية، وكذا الحيوانات البحرية، وتجري فيه السفن لنقل الإنسان والبضائع من جهة إلى أخرى.

وينقسم البر إلى أقسام، كل قسم له اسم خاص بحدود خاصة، مثل مصر، والشام، والهند، والصين، والحجاز، وأوروبا، وأمريكا، وإفريقيا.

١١١- القمر

القمر: كوكب أصغر حجماً من الشمس، ينير ليلاً، فيرسل على الأرض ضوءاً يهتدي به الناس في الطريق، وينتفع الزارع بضوئه، فيشتغل بالزراعة ليلاً. وهو يبدو في أول الشهر مقوَّساً، ويقال له: هلال، ويزداد حجمه إلى أن يُرى تامّ الاستدارة في الليلة الرابعة عشرة، فيُسمى بدراً، ثم يعود إلى حالته الأولى تدريجياً، حتى يصير حجمه في أواخر ليالي الشهر، كما كان في أوائل لياليه.

ويُرى في أول الشهر بعد الغروب جهة الغرب، وفي آخره قبل الفجر جهة الشرق.

١١٢- النجوم

النجوم: هي الأجسام المنيرة التي تراها ليلاً منتشرة في السماء، وحجمها يختلف صِغَراً وكبراً. فمنها ما هو أكبر من الشمس، ولكنها ترى صغيرة لبعدها الكثير عنا. ومنها ما هو أصغر من الشمس والذي يهم معرفته منها هي النجمة القطبية التي تظهر جهة الشمال، فبها يهتدي المسافر برّاً وبحراً، وتعرف بها الجهات الأربع الأصلية، وهي الشرق، والغرب، والشمال، والجنوب، والنجوم لا يظهر ضوءها نهاراً لشدّة ضوء الشمس.

١١٣- الثبات والصبر

[البسيط]

وقَـلَّ مَـنْ جَـدَّ فـي أَمْـرٍ يُـحـاوِلُـهُ ... واسْتَصْحَبَ الصَّبْرَ إلا فازَ بالظَّفَر

إنما تمام الأعمال، واجتناء ثمارها، والحصول على الفائدة منها، يكون بالثبات والصبر اللذين أنالا المرء مطالبه، وأدرك بهما رغائبه، إن لم يكن من كبار المفكّرين، وأهل البسالة والقوة، فإن أكثر الأعمال العظيمة تمَّت بأبسط الوسائل، واستخدام القوة العادية.

وكان المعين على تمامها هو الثبات والصبر: فأكثر الناس ثباتاً وصبراً أكثرهم نجاحاً ورقيّاً، وإن الاجتهاد والصبر أخضعا كل صعب، ولا فضل لبعض الناس على بعض إلا بالعمل والصبر.

ألا ترى أنه ما ولد العالم عالماً، ولا الأمير أميراً، ولا الملك ملكاً، ولا الحكيم حكيماً، ولكن الصبر أوصل هؤلاء إلى مراتبهم، وسار بهم إلى مجالسهم، و أنالهم الرفعة وعزّ الدهر.

أما من استسلم إلى اليأس وملكه زمامه، فسيقوده إلى مهواة سحيقة، فيسوء حاله، وينكد عيشه، ويحيا حياة لا خير فيها، تراه لا يتمّ عمله، ولا يدرك مطلباً، ولا ينال غرضاً، فتضيق عليه الأرض بما رحبت.

١١٤- العفو عند المقدرة

(١)

يروى أن رجلاً من الفرس، كان يسوء آخر من العرب، فتمكن العربي يوماً من القصاص منه، والفارس وحده، والعربي وسط فئة من قومه، كل واحد منهم أشار عليه برأي، فمنهم من قال: نضربه حتى يفارق الحياة. ومنهم من قال: نجلده. ومن قال: نشنقه، وهكذا. وبقي منهم رجل لم ينطق بكلمة واحدة. فقال له العربي: ما رأيك فيه؟ قال: الرأي عندي العفو عنه؛ لأن من جازى اللئيم بلؤمه، كان مثله، والعفو عند المقدرة، خير من التشفّي. قال العربي: أصبت، وما قصدت غير ذلك.

ثم قال للفارسيّ: لقد عفوتُ عنك، فلا تعدْ إلى مثل ما كنت تفعل معي، فإن تقلّبات الدهر سريعة، يوم لك، وآخر عليك. فشكر له الفارسي كرم أخلاقه، وحسن صنعه، وندم على ما فعل معه في بادئ الأمر، واتَّخذه من أعظم أصدقائه، واستدل بذلك على مروءة العرب وكرم أخلاقهم.

١١٥- العفو عند المقدرة

(٢)

قيل إن العرب، لما فتحوا بلاد الأندلس، اعتدى شاب إسباني على فتى من العرب وقتله، ثم فرّ هارباً، واتفق أن مر من طريقه بحديقة على بابها هرم يبلغ عمره نحو مائة سنة، فاستغاث به الشاب، فأخفاه الرجل في حجرة بالحديقة.

وبعد قليل من الزمن، حضر الناس يحملون القتيل، ووقفوا به على باب الحديقة، فتأمله الرجل، فوجده ابنه، فحزن ووقع على الأرض مغشيّاً عليه، ولكنه أخفى حزنه، وكتم غيظه، وانتظر حتى دخل الليل، ثم ذهب إلى الشاب، وعَرَّفه أن القتيل ابنه. فخاف، وأيقن أن الرجل سيقتله، فهَدَّأ الرجل روعه، وأزال خوفه، وقال له: قد استغثتَ بي فأغثتُك، وليس من ديني أن أنقضَ عهدي معك،فكنْ آمناً مني، ولكن لا آمن عليك من قومي أن يقتلوك، ففِرَّ من هذا البلد، وانجُ بنفسك. وزَوَّدَه بألف درهم. فأثَّر هذا الوفاء، وذلك الخلق الكريم في هذا الفتى تأثيراً شديداً، حتى أيقن أن للإسلام فضائل، لو عمل بها أهله، لكانوا من أرقى أمم الأرض.

١١٦- في قياس الإنسان بسائر الحيوان

قد منحت الحكم الإلهية الحيوانات الإنسية والوحشية سلاحاً تدفع به عن نفسها، وتسطو بها على أبناء جنسها، وغير جنسها. وأما الإنسان فهو مجرد عن ذلك، ومعرَّض بجميع أعضائه للمهالك، فجلده عرضة لحرّ الشمس، وزمهرير البرد، ومضار الرياح العواصف، والتلاقيح القواصف، وقد حمى المولى سبحانه وتعالى جميع المواليد في سائر الهضاب والبطاح، حتى جعل للأشجار قشراً عليها وغلافاً يقوم مقام السلاح، وخصَّ الطيور الجوارح بأظفارها، ووهب لذات الأربع مخالبها وقرونها لتدفع بها عن نفسها، حتى السلحفاة التي أضعف الحيوان، قد جعل لها درعاً يدفع عنها الأذى، ويمنع عنها الردى بخلاف الإنسان، فقد خرج من بطن أمه لا يعلم شيئاً، ولا يقدر على شيء إلا بالتربية والتعليم. فوجب تربيته وتعليمه وإرشاده للمعيشة والتكلّم، وتعويده أن يتفكر ويتأمل.

١١٧- القاهرة

إن سبب تسميتها بهذا الاسم، هو أن جوهراً القائد، لما رغب في بنيانها، جمع المنجِّمين. وأمرهم أن يختاروا طالعاً سعيداً ليدوم ملك سيده، وذرّيته من بعده. فوضعوا في الأرض التي أرادوا اختطاطها قوائم من الخشب، ربطوا فيها حبالاً بها أجراس، وأمروا العمال أن لا يلقوا شيئاً بالأساس، إلا إذا سمعوا صوت الأجراس. ثم تهيؤوا لرصد الطالع، فاتفق نزول بعض الغربان على الحبال، فاضطربت الأجراس، وظن العمال أن المنجِّمين حركوها، فوضعوا الأساس. وعندها صاح المنجِّمون: القاهر أي: المريخ في برج الطالع، فاشتق منه اسمها.

١١٨- الكعك في العيد

إن الكعك كثير السمن والسكر الذي يُصنع في زمن الأعياد. إنما هو ينبوع صناعي لأمراض المعدة والأمعاء والكبد، خصوصاً عقب الصيام، فخطره شديد على الأطفال والصبيان. ومن الغريب أننا نرى البعض من الناس يطعمه للطفل الرضيع، مع أنه بمثابة[1] سم قتّال لمثله، وأشدّ منه خطراً، وأعظم منه ضرراً النوع المسمى غريبة، وهو يصنع أيام الأعياد، ولا يقدَّم إلا للأعزاء والأصدقاء، فكأنهم على قدر نصيبهم من المعزة والكرامة يوفون حظاً أوفر، ونصيباً أكبر من الضرر. ألا قاتل الله الجهل، فإنه يحيل السيِّئة حسنة، والضار نافعاً، والواجب إذا كان وجوده لازماً زمن الأعياد أن يكون خفيفاً قليل الدسم والسكر، وأن يجفّف في التنور جيداً.

١١٩- مضار الدّين

إذا شئت أن تعلم قيمة المال، فاذهبْ واقترضه من أحد الناس، تجد أنَّ من استدان هان، لأنك إذا صرت مديناً لأحد ما، فإنك صرت عبداً رقاً له، لأن الجنيه الواحد الذي تقترضه من جارك، هو ثمن حريتك الذاتية التي رهنتها لديه. فإذا سلمت بأن المقترض عبد لمن أقرضه، نصحتك أن تنفر من هذا القيد المؤلم، واحفظْ حريتك واستقلالك، وواظبْ على عملك تكنْ

(١) الأصحّ أن يقول: بمنزلة أو بمكانة، لأنّ المثابة تعني المنزل وليس المنزلة.

حرّاً، واقتصدْ تكنْ سعيداً. فإذا قدرت أن تكون نفقاتك أقل من دخلك، فقد ملكت حكمة الفلاسفة.

١٢٠- اللغة العامية[١]

الكتابة لاتزال باللغة العربية الصحيحة في الكتب الأدبية، وأما الكلام فقد تغلَّبت عليه اللغة العامية، وهي خليط من العربية مع لغات أخرى، نشأ من اختلاط الأعاجم بالعرب، وهذه اللغة العامية تختلف باختلاف البلاد والعصور، كما ترى ذلك في لغة أهل مصر، والشام، وبلاد المغرب.

ولقد كادت اللغة العامية في بعض الممالك تقضي على اللغة العربية الأصلية، حتى أصبح معظم الناس في مصر مثلاً لا يستطيعون التعبير بها، فيدرسونها كما تدرس اللغات الأجنبية، فعلينا إذا أردنا إحياء هذه اللغة الجليلة أن ننفر من اللغة العامية، ونعقد الخناصر على كل كلمة لغوية أو عبارة صحيحة تمر بنا.

١٢١- النظافة

الصحة من أجلِّ النعم التي يتمتَّع بها الإنسان في هذه الحياة، وبدونها لا يقدر على القيام بواجباته، ولاعلى الدأب في أعماله، ولا يلتذّ بشيء من أطايب الحياة وملاهيها. والنظافة من أقوى الأسباب في حفظ الصحة، وأكبر الوسائل في دفع العلل. والعناية بها أمر يجب لصالح الصغار والكبار. وهي تزيد البدن نشاطاً وبهاء. ذلك لأن الجلد الذي يغشى بدن الإنسان له مسامّ عديدة صغيرة جدّاً تكون مئات منها قدر الظفر مساحة.

ومن هذه المسام يترشَّح الجسد عرقاً كل يوم صيفاً وشتاء، وإنما يشتدّ ترشّحه على المتعرّض للحر أيام القيظ. وعلى العامل أي الصانع إذا عمل عملاً شاقاً، وإذا بدا العرق على ظهر الجلد يمتزج بما يعلق بالبدن من الغبار الدقيق، فتعلو الأدران[٢] البدن، وتلبد فيه حتى تصير كالغشاء عليه، فيسدّ العرق مسام الجلد، فيحصل الضرر.

---

(١) الأصح أن يقال: لهجات عامية وليس لغات.

(٢) الأدران: الأوساخ ومنه الحديث النبوي [أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم، يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء؟].

١٢٢- أخلاق العرب

إن العرب قلّما كانوا يحتاجون إلى حاكم يفصل في الخصومة بينهم، لما فطروا عليه من المناقب الجميلة التي تقوم فيهم مقام الحاكم الصارم، وتنزّههم عن ارتكاب الدنايا مما يُغنيهم عن القضاء، والحكومة إنما تقضي بين الذين لا يعرفون الوفاء. وكان الوفاء متمكّناً في خلق العربي، ويزيد تمكّناً فيه كلّما بعد عن المدن، وأوغل في الصحراء، لأن الغدر والنكث لايعيشان إلا في القصور الشماء، في ظل الحدائق الغناء. وترى الوفاء مطبوعاً في أقوال أهل البادية وأشعارهم وأمثالهم، ويتجلى في عاداتهم وأخلاقهم، وفي سائر أعمالهم، وهو فيهم سجيَّة، وفي سواهم تصنّع وتكلّف.

١٢٣- العالم السماوي

مضى على الإنسان حين من الدهر، وهو يظن أن عالم الكون يتركب كله من شمسه، وما يدور حولها من كواكب سيّارة، وأن بقية النجوم ليست إلا مصابيح تتلألأ في الظلام فتُزين السماء، أما اليوم فقد دلت الأرصاد على أن بين تلك المصابيح السماوية ما هو أعظم من الشمس بأمثال الأمثال، وجميعها أجرام عظيمة تتحرَّك في الفضاء بقدر معلوم. وما فلك شمسنا عمّا يدور حولها من كواكب سيارة إلا فلك صغير من عدة أفلاك واسعة ذات شموس عظيمة، لا تقاس شمسنا بالنسبة إليها بشيء ما. وما أرضنا هذه التي نقطنها إلا ذرة أو غبارة في عالم الأفلاك، فسبحان الخالق العظيم.

١٢٤- مثل الأمة

الأمة كالجيش، ترى فيه القائد والطبيب والمهندس والمعماري والميكانيكي والموسيقيّ والإمام وغيرهم، وكلهم يشعر بواجب واحد هو خدمة بلادهم، وتضحية نفوسهم من أجل وطنهم. ولكن كل فرد منهم عليه واجب خاصّ قد فرض عليه القيام به خير قيام.

فالقائد يقود الجند إلى النصر والظفر.

والطبيب يداوي المرضى والجرحى.

والمهندس يرسم طريق عبور الأنهار وصعود الجبال.

والمعماري يبني القلاع والحصون.

والميكانيكي يُصلح البنادق والمدافع.

والموسيقيّ يبث في الجسد بسحر نغماته روح الشجاعة والإقدام، وينسيهم متاعب الحرب وعناءها.

والإمام يصلِّي بهم شكراً لله على ما تَوَّجَهم به من النصر.

فإذا خلا الجيش من أحد هؤلاء، كان ناقصاً ميتاً فاقداً لركن من أركان قوته.

١٢٥- وصف مصر

مصر هي بلادنا المحبوبة، ووطننا العزيز، تقع في الشمال الشرقي من إفريقيا، بين البحر الأبيض المتوسط شمالاً، والسودان جنوباً، والبحر الأحمر وبلاد الشام شرقاً، والصحراء الليبيَّة غرباً.

وهي من أخصب البلاد أرضاً، وأصفاها سماءً، وأعذبها ماء، وأجودها هواء، وألطفها سكاناً، وأكثرها قطاناً، يقصدها الناس من كل ناحية، ويؤمّونها من البلاد النائية، وقد اشتملت على أبهج المناظر، وأبدع المساكن، وأجمل القصور، وأحسن الدور، وبها آثار من دخولها متعاقبين، وعاديات من ملوكها متتابعين. كالأهرام العظيمة، والتماثيل الهائلة من بقايا الفراعنة، والصور والنقوش والمباني والمساجد. وللنيل الفضل الأكبر، والنصيب الأوفر، في حياة مصر وهنائها ورفاهيتها وسعادتها، فهي هبة منه ونعمة صادرة عنه.

١٢٦- الصناعة

هي أصل من أصول التقدّم، وعامل من عوامل النجاح، وسبيل إلى الغنى والثروة، اللذين بهما تحسن حال الأمة، ويرقى شأنها، ويعزّ سلطانها. ولذا مالت إليها الأمم المُتَمَدْينة ميلاً عظيماً، وتعلقت بها تعلقاً كبيراً، فتوطَّدت بها دعائم دولتها، وازدادت عظمتها. وظهر منها النجّار، والبنّاء،

والحدّاد، والفلّاح، والنسّاج، وصانع الآلات والأدوات، وغير أولئك ممن أعزّوا بلادهم، وقدّموا أمتهم، ونالوا عزّ الدهر. وإن الصناع والعمال الذين أوصلوا أمتهم إلى ذروة الحضارة وينابيع الغنى والثروة، وأغلبهم من العامة، وأكثرهم من السوقة. ولكنهم جدّوا واجتهدوا حتى أفادوا الناس، وزادوا راحة البشر، فإن طعامنا وكسوتنا، وأساس منازلنا والمصابيح التي ننير بها بيوتنا وطرقاتنا والآلات البخارية التي نركبها براً وبحراً وغير ذلك مما لا يزال العالم ولن يزال يجتني من ثماره، ويقطف من أزهاره مايسد به حاجته وينال مقصده، كل ذلك نتيجة أعمالهم، وثمرة أتعابهم، وغاية اجتهادهم. فهؤلاء الذين أسّسوا أركان التمدين والحضارة، وعملهم هذا لا يعد ضئيلاً أمام عمل الجنود، بل هو أحسن مغبّة وأفضل خاتمة وأعظم جهاداً في سبيل رقيّ الأمة والبلاد.

١٢٧- التجارة

هي ركن من أركان الحضارة، وأصل من أصول التقدم، بها ترقى الصناعة. وتتقدم الزراعة، ويظهر أهل الجد والنشاط والسعي والاجتهاد. ويصنع الصانع، فيجد من ينتفع بمصنوعاته شرقاً وغرباً. ويزرع الزارع، فيرى من يستفيد من مزروعاته في بلاده، فيزداد الصانع نشاطاً وقوة، والزارع جدّاً وسعياً، فيعم الخير والهناء جميع الناس. وليست كل أرض تقوم بحاجات أهلها، وقلّما تتوفر فيها موارد الحياة. فمن الواجب أن يتبادل الناس، فيأخذ كل ما يفتقر إليه من الآخر حتى يعيشوا فرحين مسرورين. لقد ازداد التعارف بالتجارة، وتم التآلف والتعاون، وانفتح للناس باب وصولهم إلى كل خير وسعادة، فلولاها ماأنشئت تلك السفن التي تمخر عباب البحار، ولا هذه القطر التي تجوب أطراف البلاد، فتنتقل البضائع من الغرب إلى الشرق، والمزروعات من الشرق إلى الغرب، ولا انتفع حمّال ولا نقّال، ولا رقت صناعة الشرق ولا نمت زراعة، ولا عاش كثير من الناس في بؤس وشقاء.

وإن الأمم العظيمة الآن تنافس وتتسابق في التجارة، فإن عقدت عهود فمن أجلها، وإن أبرمت شروط فلها، وإن حصل خصام أو نزاع فبسببها،

ذلك لأنها أقرب طريق إلى سعادة الأمة ورقيها، وازدياد ثروتها، وتقدمها على غيرها.

لذلك اعتنوا بها، وفتحوا لها المدارس، فأخرجت أناساً ارتقوا بأمتهم إلى ذروة السعادة والخير. والأمانة، والنزاهة، والاستقامة، والعدالة، والصدق، وترك الغش، كل هذه الأوصاف يجب أن يتحلَّى بها التاجر حتى يكسب ثقة الناس، فيربح مالاً، وصداقة، وثروة، ومودَّة، ويحسن ذكراه، وتحمد سيرته، وإن ذلك له الربح العظيم، إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

١٢٨- الزراعة

هي الوسيلة العظمى، والسبب الأقوى في بقاء الإنسان والحيوان وعيشتهما في الحياة، إذ منها يكون الغذاء، والسكن، واللباس، والأثاث، والمتاع، وكل خير وهناء. نرى الأرض هامدة[١] لا زرع فيها ولا نبات، فإذا أرواها الزارع بجده ونشاطه بعد فَلْحها وإلقاء البذر بها، اهتزت، وربت، وأنبتت من كل زوج[٢] بهيج[٣]، فيجني منها غذاءه وغذاء أهله وحيوانه، ثم يدخر ما شاء، ويبيع ما شاء، فيفيد نفسه ويفيد الناس منه، ويُغنيها ويغني أمته متى كان عاقلاً مدبراً، لا مسرفاً مُبذِّراً.

ولعلوّ شأن الزراعة وعظم نفعها، اعتنت الأمم المُتَحَضِّرَة بها. فأنشأت لها المدارس، وأقامت لها المعارض، وكافأت النابغين فيها، وأصلحت من طرق الريّ، وبنت القناطر والجسور، وحفرت الترع والمصارف، وغير ذلك مما عاد عليها، وعلى الناس بالخير والسعادة والغنى والثروة، وهذا جزاء العاملين، وإنها لجديرة بكل ذلك.

فمنها الأقوات والأدوية والروائح الزكيَّة، والعيدان العطريَّة، والفواكه،

---

(١) هامدة: يابسة وساكنة.

(٢) زوج يقال للاثنين زوجان.

(٣) وزوج بهيج: حسن، قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

والملابس، والوقود، والخشب الذي تصنع منه السفن، وتُسقف به المساكن، وتُعمل منه الأبواب والنوافذ وغيرها كل ذلك من نتاج الزراعة ومن ثمرها، فهي من أعظم الوسائل لرقيّ البلاد وسعادتها، وتقدّمها وعلوّ شأنها، متى ادرع القائمون بها بالاقتصاد، وابتعدوا عن الدين والإسراف، هدى الله الناس إلى سواء السبيل.

١٢٩- تلاميذي

أنتم رجال الغد، وموضع الآمال، ومن ستكون بيدهم مقاليد الأمور والأعمال، فيكون منكم الوزير، والأمير، والرئيس، والكبير، والعالم، والحكيم، والمهندس، والطبيب، والمعلم، والمربي، فتصبحون وبيدكم مفتاح الخير، والسعادة لكم، ولأمتكم، وبلادكم، فكونوا خير خلف لخير سلف، كونوا رجالاً عاملين أعزّة، كونوا خير أمناء، كونوا عادلين، تجمَّلوا بالآداب، كَمِّلوا أنفسكم بمكارم الأخلاق: [البسيط]

فَإِنَّما الأُمَمُ الأَخْلاقُ ما بَقِيَتْ ... فإنْ هُمُو ذَهَبَتْ أَخْلاقُهُمْ ذَهَبُوا

كونوا بين الناس ضياءً ونوراً، ومصدرَ كلِّ خير وكمال، كي يقتدوا بكم ويهتدوا بنوركم، ويكونوا لكم عوناً وناصراً، يستمعون قولكم، ويطيعون أمركم.

ابتعدوا عن الكبر، فإنه ممقوت، تجنَّبوه، فإنه من أقبح الرذائل، فارقوه وانفروا منه، فإنه لن يفيد صاحبه غير الامتهان و الاحتقار. حافظوا على وقتكم، لا تصرفوه في غير مفيد، لا تجعلوه يضيع سدى، فهو محسوب عليكم، وما هو إلا عمركم، فإن أنتم ملأتموه بالخيرات، كان لكم ذِكْراً حسناً، وفخراً دائماً، وإن أنتم أضعتموه فيما لا يفيدكم وينفعكم، كان شاهداً عليكم بين يدي خلفكم، وذلك ما لا ينتظر منكم.

إن وقت الشباب هو وقت العمل، وقت الشباب هو وقت بناء المستقبل الحسن، وقت الشباب هو وقت السعادة الأبدية، فادّخروا من شبابكم لهرمكم، ومن صحتكم لمرضكم، ومن قوَّتكم لضعفكم، واعملوا لسعادتكم وخيركم في هذا الزمن الذي سيندم عليه الكسول، ويتمنَّى رجوعه الخامل، وذلك ما لا يكون أبداً.

نافسوا في المكارم، وأحبُّوا الخير، وتجنَّبوا الشر، وكونوا إخواناً عاملين على نجاحكم، ونجاح أمتكم وبلادكم.

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[١].

١٣٠- المستشفيات

هي من أهم ما تحتاج إليه الأمم لحفظ صحة أفرادها من غوائل الأمراض، وطوارئ العلل التي يتعرَّض إليها الإنسان بطبيعة جسمه وحوادث الجو. ولذلك اعتنت الحكومات الراقية، وكثير من ذوي البر والإحسان بتشييدها في أماكن مستجمعة لشرائط الصحة، واستحضروا بها أنفس العدد، وأدق الأدوات، وعَيّنوا بها مهرة الأطباء وخيرة السيدات الممرضات، ذوات الشفقة والحنان.

فأنقذت العامة من مخالب الأدواء والمهالك التي طالما فتكت بهم، وهم لا يستطيعون ردها بإحضار الأطباء، وشراء ما يلزم من الدواء، فلحق بأولادهم ومن يعولون من نكد العيش ما تذوب له القلوب وتقشعر منه الأبدان، أزالت المستشفيات تلك النكبات، فيجاء بالمريض إليها، ويفحص داؤه، ويعطى دواءه، ويرتَّب له ما يلائمه من الغذاء، ويطوف به الطبيب صباح مساء، والخدم والممرضات من حوله يُلبّون نداءه، ويراقبون أخطار دائه.

ويظلّ كذلك حتى يبِلَّ[٢] من مرضه، ويخلص من علله، بلا أجر إن ثبت قصور ذات يده، وإلا فبأجر زهيد لا يكاد يذكر بجانب ما أنفق لأجله، وقد أُعِدَّتْ بها أماكن الأغنياء والأواسط في مقابلة أجر معلوم، يوفر عليهم ما كانوا يصرفونه في بيوتهم من طائل الأموال في استحضار الأطباء و أصناف الدواء، مع عدم توفر طرق الإسعاف بالمنازل.

فما ظَنُّك بتلك الأماكن التي حفظت النفوس في أجسامها، وردت جيوش الأمراض على أعقابها؟

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٢ .

(٢) بلَّ من مرضه بلاً، أي بَرَأ وصح وشفي.

١٣١- التقليد

التقليد: غريزة أودعها الله - جل شأنه - في نفس الإنسان لتكون داعية العمل، ورائد الرقي، ومبعث الحركة، ومطلع شموس المدنية والعمران.

يولد الطفل وهو لا يعلم شيئاً من شؤون الحياة، فتراه مولعاً بتقليد أمه وأبيه وسائر ما يقع تحت حواسه من حسن أو قبيح، فجدير بالإنسان أن يصرف تلك الغريزة إلى النافع من الأشياء، ويجعلها بينه وبين أعاظم الرجال، فيقلهم فيما أتوه من جليل الأعمال.

فإن شاء، فليكن مرشداً حكيماً، أو قائداً عظيماً، أو صانعاً متقناً، أو زارعاً محسناً، أو طبيباً ماهراً، أو أصولياً بارعاً، أو جندياً مدافعاً، أو تاجراً أميناً، أو مخترعاً مفيداً، أو سائحاً مستطلعاً، أو قاضياً عادلاً، أو وزيراً نصيحاً، أو خطيباً فصيحاً حمياً لوطنه في كل ذلك غيوراً عليه.

فإنه، إنْ فعل ذلك، عَلم مقدار نفسه في الوجود، وقلد تقليداً نافعاً، واستفاد و أفاد.

وإن أضاع تلك الهبة النفيسة، وقلد تقليد الغراب، وكان كمن اغترّ بالسراب، وبهره حسن المنظر، فشغله عن سوء المخبر، وصار يخبط في أموره خبط عشواء، لا يميِّز بين السرّاء والضرّاء، فذلك الذي رجع بصفقة المغبون وضلَّ ضلال المفتون.

١٣٢- المكافآت

جبلت النفوس على حبّ المَحمدة والثناء، ونيل الجزاء العاجل أو الآجل، علم جل شأنه منها ذلك، ووعدها عشرة الأمثال والأضعاف المضاعفة مثوبة[١] منه تعالى على إسداء[٢] الخير وفعل البِرِّ[٣]، وكل صالح يعود بالفائدة على الفرد أو الجماعة أو عامة بني الإنسان، ونهج[٤] ذلك

---

(١) جزاء.
(٢) إعطاء.
(٣) الإحسان.
(٤) سلك.

النهج[١] ساسة الأمم الناهضون بها، ورؤساء المصالح، فمنحوا[٢] المجيدين المكافآت، وحلوا صدور النابغين في أعمالهم بالأوسمة وشارات[٣] الشرف، وميّزوا الناجحين بأنواع الشهادات، فكان لذلك الأثر الصالح في إنهاض العزائم، وترقية الأمم، والإجادة في الصنائع، والتسابق في ميدان الابتكار والاختراع.

أَلَمْ تر إلى الملأ من الأمم الراقية، يجعلون الآلاف من النقود لمن ينبغ في عمل من الأعمال التي لم تكن قد دخلت تحت قدرة مخلوق من قبل؟ فينبري من بينهم المنافسون والسبّاقون إلى أبعد الغايات، فيحوز أحدهم قَصب السبق، فيرجع برفيع الذكر وسابغ اليسر.

١٣٣- المعارض

هي مظاهر أعمال الأمم، وبراهين تفاوت الهمم، ومشارق أنوار الاختراع، ومجامع أحاسن المصنوعات، ونظام نفائس المبتكرات، تختلف باختلاف الأمم، وتباين محصولاتهم، ومبلغ علومهم، وتفاوت مداركهم، وميلهم إلى جليل الأعمال، وعظيم الآمال.

فالأمة التي قد رزقها الله بسطة في المواد الصناعية، واشتملت طبقات أرضها على أصناف المعادن، وأعملت فكرها، وبذلت جهدها في سبيل الانتفاع بتلك المكنونات، تريك في معارضها من المصنوعات ما يأخذ بألباب الناظرين، ويستهوي عقول الناقدين، ويستدرّ عبارات الشاكرين، وتجلي لك العقل الإنساني في علوّ درجاته، ومديد سبحاته. والأمة التي قد منحها الله ثَرىً طيِّباً، وسقياً نافعاً، وشكرت أنعم الله عليها، وقامت بعمارة أرضها، واستثمرتها بأنواع الزرع، تعرض عليك من مزروعاتها ما ينشرح له صدرك، وينتعش به لبُّك، وترى في معارضها من وسائل الزراعة وأدواتها ما تستعين به على الحرب والغرس، وما ترفع به ماء الآبار، وما تستدرّ به مياه الأنهار.

---

(١) الطريق.
(٢) أعطوا.
(٣) علامات.

١٣٤- جمعية الإسعاف

لا ترى أثراً حسناً أدلّ على رحمة الإنسان من تلك الجمعية التي عَرف رجالها موضع الحاجة فسدّوه، ومكان الداء فعالجوه، رأوا المدن المائجة بالناس كالقاهرة مثلاً، تغدو فيها السيارات، وتروح مراكب الكهرباء، وبين ذلك تقع الأقدار، ويصاب كثير من السابلة[١] بصدمات هذه السيارات، فكانت الحاجة ماسّة إلى إسعاف هؤلاء، بتضميد جراحهم، ونقلهم إلى المستشفيات، ولقد نهض رجال الإسعاف بعبء ذلك العمل، وقاموا به خير قيام.

تحدث الحادثة، فما نلبث أن نرى رجلاً من رجال الإسعاف فقد أقبل ينهب الأرض بسيارته، وسرعان ما يقوم بتضميد المصاب، ثم يمهده المهاد الوطيء الذي لا يحسّ فيه بألم، ولا تزعجه حركة، ويسير به إلى المستشفى.

وإن تعجب فعجب ما تأتيه رجال من هذه الجماعة من النشاط الذي يصورهم في عين الرائي كأنهم ملائكة الرحمة، يراقبون الحوادث، حتى إذا وقعت حادثة، كانوا بجانبها يخفّفون ويلاتها، ويهوّنون ألمها، جزاهم الله خيراً، وأثابهم مغفرة وأجراً.

* * *

وفي هذا القدر من الأمثلة والتمرينات كفاية، وهداية لطلبة علم رسم الحروف العربية، فقد بذلنا مجهودات عظيمة في تذليل قواعد الفن، وتقريبها إلى طريقة مثلى ملائمة لروح التعليم الحديثة، والأنظمة العصرية الجديدة، بعناية وتوفيق رب العالمين.

وببركة رسوله سيدنا محمد خاتم النبيين و المرسلين، صلى الله عليه وعلى آله و أصحابه، أجمعين آمين.

* * *

---

(١) السابلة: تطلق على الطريق المسلوكة، وتطلق على المارّين على الطريق، وجمعها: سوابل.